الثقافة العربية الإسلامية

بين الأصالة والمعاصرة

دكتور يوسف القرضاوي



الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الثقافة العربية الإسلامية

بين الأصالة والمعاصرة

الدكتور يوسف القرضاوي

الثقافة العربية الإسلامية
بين الأصالة والمعاصرة

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمـــة

الحمد لله ، وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وعلى خاتمهم المجتبى .

أما بعد . .

فما لا ريب فيه أن كل المشفقين على مسار الأمة ، وكل القوى والتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية ، متفقون على أن أمتنا تعيش فى أزمة حقيقية ، تعددت أعراضها ، وتنوعت آثارها ، وإن اختلفوا فى تعيين جوهر الأزمة : ما هو ؟

أهى أزمة إيمان وأخلاق ، كما يُصوِّرها دعاة الدين والفضيلة ؟

أم هى أزمة فكر ومعرفة كما يصوِّرها رجال الفكر والثقافة ؟

أم هى أزمة حرية سياسية وديمقراطية ، كما تصوِّرها القوى المعارضة للنظم الحاكمة ؟

أم هى أزمة علم وتكنولوچيا ، كما يصوِّرها كثير من دعاة الإصلاح ، ومن رجال الفكر أنفسهم ؟

لقد ردد كثيرون مع شوقى قوله :

وإنما الأمـــم الأخـلاق مـا بقيـت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا !

ولكن الدكتور زكى نجيب محمود علق على ذلك بقوله :

لولا خشيتى سوء التأويل لعارضت شاعرنا ، لأقول له : وإنما الأمم فى يومنا

التقنيّات ما اطردت وتغلغلت ، فإن هم انعدمت علومهم وصناعتهم وتقنيّاتهم ، تخلفوا إلى حيث لا أمل ولا رجاء ، اللّهم إلا إذا فهمنا الأخلاق بمعنى يجعل منها أن أعرف كيف يُضغط على الأزرار ومتى .

وآخرون قالوا : إنما الأمم الأفكار والثقافة .

وغيرهم قالوا : إنما الأمم الحرية لوطنها ، والحقوق لشعبها .

والأولى من ذلك أن ندع وحدانية التعليل والتفسير ، إلى الشمول والتعدد .

إن « التفسير الواحدى » للتاريخ وللواقع لم يعد مقبولاً ، لأنه يبصر الحقيقة من زاوية واحدة ، ويغفل زواياها الأخرى ، وهو يبسّط الأمور المعقدة والمتشابكة .

إن نهضة الأمم تؤثر فيها الثقافة ، كما تؤثر فيها السياسة والاقتصاد والتشريع والتربية وغيرها .

ومهما يكن الاختلاف فى تحديد جوهر الأزمة ، فأحسب أنه لا يخالف أحد فى أهمية دور الثقافة فيها ، وخصوصاً الجانب الفكرى والأدبى والفنى منها . وذلك لما لها من تأثير فى الأخلاق والسلوك ، ومن تأثير فى السياسة والحكم ، وتأثير فى توجهات الشعوب إلى التقدم أو التخلف ، إلى العلم والعمل ، أو إلى الكلام والجدل .

فلو صحَّت ثقافة أمة واستقامت ، وتكاملت وتوازنت وسلمت من عوامل التشويه والتحريف - كما هو الأصل فى ثقافتنا - لكان لها أثرها البالغ فى صحة توجه الأمة واستقامتها وتكاملها وتوازنها . وإذا حدث العكس كانت النتيجة عكسية كذلك ، لأن الثمرة من جنس الشجرة . وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً ﴾ (١)

---

(١) الأعراف : ٥٨

أما قضية « الأصالة والمعاصرة » فى ثقافتنا فهى قضية قديمة جديدة .

فمنذ كنا طلاباً صغاراً ، ونحن نقرأ ونسمع ونتابع أنباء صراع فكرى أدبى محتدم بين تيّارين متعارضين يعبّر عن أحدهما بـ « القديم » ، ويعبّر عن الآخر بـ « الجديد » .

ومما قرأناه من آثار هذه الحرب التى تسلّ فيها الألسنة لا الأسنّة ، وتشحذ فيها الأقلام لا السيوف : كتاب « تحت راية القرآن » أو « المعركة بين القديم والجديد » لأديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعى ، الذى شنّ فيه الغارة على الدكتور طه حسين وكتابه عن « الشعر الجاهلى » .

وفيه سخر الرافعى من هؤلاء « المجددين » الذين يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر !

ومما قرأناه شعراً من آثار هذه المعركة قول أمير الشعراء أحمد شوقى فى قصيدته الشهيرة عن « الأزهر » مشيراً إلى الغلاة من دعاة التجديد ، وأعداء القديم :

دع عنك قول عصابة مفتونة ... يجدون كلّ قديمٍ أمرٍ منكرا !

ولو استطاعوا فى المجامع أنكروا ... مَن مات من آبائهم أو عُمّرا !

من كلّ ساعٍ فى القديم وهدمه ... وإذا تقدم للبناية قصّرا !

وأتى الحضارة بالصناعة رثّة ... والعلم نزرا ، والبيان مثرثرا !

كما قرأنا قول « إقبال » عن هؤلاء المجددين : إن جديدهم هو قديم أوروبا .
كما ذكّر هؤلاء بأن الكعبة لا تجدد ، ولا تستجلب لها حجارة من الغرب !

واستمرت هذه المعركة بين التيارين المتضادين ، ظاهرة حيناً ، وخفية فى معظم الأحيان ، يشتعل أوارها كلما ظهر كتاب بالغ الجرأة ، أو نشرت مقالة كذلك ، وتخبو جذوتها كلما مضت الحياة على وتيرتها المعتادة .

كان التيار الأول يمثل القديم الموروث فى ثباته وشموخه ، وكان التيار الآخر يمثل الجديد الوافد فى بريقه وإغرائه .

وكان يمثل الدفاع عن التيار الأول : رجال الأزهر ودار العلوم والقضاء الشرعى ، ومَن دار فى فلكهم فى مصر ، وأمثالهم فى البلاد العربية والإسلامية .

وكان يمثل التيار الآخر : خريجو المدارس والكليات الأجنبية فى الداخل ، وخريجو الجامعات الغربية والوافدون من الخارج ، ومَن تتلمذ عليهم ، وحطب فى حبلهم .

ولا ريب أنه وجد غلاة فى كلا الفريقين . ففى مقابل الذين يريدون تجديد الكعبة والشمس والقمر ، وجد الجامدون على كل قديم ، الذين يريدون أن يوقفوا حركة الفلك ، وسير التاريخ ، شعارهم : ليس فى الإمكان أبدع مما كان ! وضاع الوسط بينهما .

وقد لخص الموقف علاّمة الشام محمد كردعلى فى بحثه « القديم والحديث » بقوله : ها قد أصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، والأمة شطران : شطر سر إلى البلاهة والغباوة ، وشطر إلى الحمق والنفرة . وبعبارة أخرى : نسينا القديم ، ولم نتعلم الجديد !

كانت عناوين النزاع بين التيارين تختلف من فترة لأخرى ، ولكن المضمون فى النهاية واحد . إلا أن التيار الأول يحمل فى الغالب عنواناً منفّراً مستنكراً ، على حين يحمل التيار الآخر عنواناً جذاباً مغرياً .

تجد ذلك بيّناً واضحاً فى العناوين التى استُخدمت فى التعبير عن هذا الصراع : القديم والجديد ، التقليد والتجديد ، المحافظة والتحديث ، الجمود والتحرر ، الرجعية والتقدمية .

حتى انتهى أخيراً إلى العنوان السائد اليوم ، الذى يحمل ثنائية مقبولة إذا أعطيت الكلمة حقها من الفهم والتحليل ، وهى ثنائية التكامل ، لا ثنائية

التضاد والتقابل ، وهو « الأصالة والمعاصرة » ، وفى وقت ما عبر عنه بـ « الأصالة والتجديد » . وقد قدمت فيه دراسات ، ونظمت ندوات وحلقات [1] .

وبحثنا هذا يتحدث عن « ثقافتنا العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة » .

هكذا حدده لى الإخوة الزملاء فى كلية « الإنسانيات والعلوم الاجتماعية » بجامعة قطر ، الذين خططوا لهذه الندوة الفكرية العلمية ، التى تدور بحوثها حول هذا الموضوع المهم : « الثقافة العربية : الواقع وآفاق المستقبل » .

ولا ريب أن قضية « الثقافة العربية » قضية بالغة الأهمية ، ولا غرو أن عقدت حولها عدة ندوات ، ومؤتمرات فى أكثر من بلد ، تبحث فى جانب أو أكثر من جوانبها المتعددة .

ويبدو أن الإخوة الزملاء أرادوا إرضائى أو إغرائى ، فجعلوا عنوان بحثى على وجه الخصوص : الثقافة العربية الإسلامية . . إلخ . ولم يكتفوا بوصف العربية وحده ، فهل يمكن أن تكون ثقافتنا عربية غير إسلامية ؟

هذا ما ينبغى أن نبحثه هنا : ماهية ثقافتنا : أهى عربية أم إسلامية ؟ أم هما معاً ؟

وما مكونات هذه الثقافة وخصائصها ؟

وما معنى هاتين الكلمتين اللتين اشتهرتا على الألسنة والأقلام ، ورددهما الناس هنا وهناك ، دون تحديد بيّن لمفهومهما : الأصالة والمعاصرة ؟ وما المقصود بهما فى نظرنا نحن المؤمنين برسالة الإسلام ، وخلود دعوته ،

---

(١) من ذلك : الندوة التى نظمها « مركز دراسات الوحدة العربية » عن « التراث وتحديات العصر فى الوطن العربى » ، أو « الأصالة والمعاصرة » بالقاهرة فى سبتمبر سنة ١٩٨٤ م ، ونشرت بحوثها ومناقشاتها فى مجلد ضخم .

وبقاء أمته ، واستمرار كتابه - بلسانه العربى المبين - محفوظاً ، كما وعد الله : ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً ﴾ [1] .

هذا ما نرجو الله - تباركت أسماؤه - أن يوفقنا بفضله إلى إلقاء شعاع من ضوء ، محاولة لإزاحة الضباب والغبش عنه ، بقدر جهدنا الكليل ، وزادنا القليل . وسنقسم دراستنا هذه إلى أربعة فصول وخاتمة .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [2]

الدوحة : رمضان سنة ١٤١٣ هـ (مارس ١٩٩٣ م) .

يوسف القرضاوى

* * *

---

(١) الكهف : ٩٨ (٢) هود : ٨٨

الفصل الأول

ثقافتنا العربية الإسلامية

مكوناتها وخصائصها

- عربية أم إسلامية ؟
- مكوِّنات الثقافة العربية :

الإسلام - اللغة العربية .

- خصائص ثقافتنا :

الربانية - الأخلاقية - الإنسانية

- العالمية - التسامح - التنوع

- الوسطية - التكامل .

* * *

عربية أم إسلامية ؟

فى « المؤتمر التاريخى » الذى عقد فى رحاب جامعة بيروت سنة ١٩٧٤ م تحت عنوان « الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد » ، وكان لى شرف المشاركة فيه ، دار جدل طويل الذيول حول ماهية الحضارة المذكورة : أهى عربية أم إسلامية ؟ وما الصلة بين العروبة والإسلام ؟ أهى صلة تكامل أم صلة تناقض ؟

وهذا الجدل يتجدد ويتكرر كلما تجدد الحديث عن ثقافتنا وحضارتنا ، وعن هويتها وانتمائها ونسبها : إلى أى أب تنتسب ، وإلى أى قبيل تنتمى ؟ إلى الإسلام أم إلى العروبة ؟ إلى العرب أم إلى المسلمين ؟

وزاد من حدة هذا الجدل وجود تيارين غَلَوا وتطرفا فى النظرة إلى القضية : تيار الإسلاميين الذين يضيقون بالعروبة ، وتيار العروبيين (القوميين) الذين يتنكرون للإسلام .

ولو أنصف كل منهما ، ونظر فى الأمر مِن جوانبه كلها ، لوجدوا أن لا غِنىً للعروبة عن الإسلام ، ولا معنى للإسلام بدون العروبة .

فالعربية هى لسان الإسلام ، ووعاء ثقافته ، ولغة كتابه وسُنَّته ، والعرب هم عصبة الإسلام ، وحملة رسالته الأولون ، وهم الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ من أنفسهم ، ليتلو عليهم آيات الله ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ثم ينطلقوا فى الأمم دعاة ومعلمين .

وأرض العرب هى أرض المقدسات الإسلامية ، فيها الكعبة البيت الحرام الذى جعله الله قياماً للناس ، ومثابة لهم وأمناً ، وقبلة لأهل الإسلام ، فحيثما كانوا ولّوا وجوههم شطره ، وإليه يحجّون ، وبه يطوفون ، ومن حوله يسعون ويقفون وينسكون .

وفى أرض العرب مسجد النبى ﷺ ، ومثوى رفاته الشريف . وفيها كذلك المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله .

فكل المساجد التى لا تُشَد الرحال إلا إليها فى أرض العرب .

لهذا كانت العروبة وثيقة الصلة بالإسلام ، كما أن الإسلام موصول الرحم بالعروبة .

الإسلام هو الذى خلّد العربية حينما نزل بها كتابه العظيم ، وحدّث بها رسوله الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى أخرجها من الجزيرة ونشرها فى الآفاق .

وهو الذى علّم العرب من جهالة ، وهداهم من ضلالة ، وأخرجهم من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والإسلام . فقد كانوا كما وصفهم الله تعالى فى كتابه : ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

وأى ضلال أبين من ضلال قوم فسدت عقائدهم وتصوراتهم ، وفسدت أخلاقهم وأعمالهم ؟

والإسلام هو الذى جعل للعرب رسالة يعيشون بها ، ويموتون عليها ، ويبذلون الأنفس والنفائس فى سبيلها . وبهذا كانوا بالإسلام : ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٢) .

والإسلام هو الذى وحّد العرب من فُرقة ، وجمعهم من شتات القبلية ، وأكرمهم بنعمة الأخوة بعد نقمة العداوة ، وألّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً ، وجعل منهم « أمة » واحدة ، تواجه أعتى أمم الأرض ، بما لديها من دين تغالى به ، وحق تعتزّ بنصرته ، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ

---

(١) آل عمران : ١٦٤ ، والجمعة : ٢ (٢) آل عمران : ١١٠

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ (١) .

وما أبلغ ما قاله الإمام قتادة بن دعامة السدوسى فى بيان ما كان عليه العرب قبل الإسلام ، وما صاروا إليه بعد : « كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاه عيشاً ، وأبينه ضلالة ، وأعراه جلوداً ، وأجوعه بطوناً ، مكعومين (٢) على رأس حجر بين الأسدين : فارس والروم ، لا والله ما فى بلادهم يومئذٍ من شيء يُحسَدون عليه ، مَن عاش منهم عاش شقياً ، ومَن مات ردّى إلى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلاً يومئذٍ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظاً ، وأرقّ فيها شأناً منهم ، حتى جاء الله عَزَّ وجَلَّ بالإسلام ، فورثكم به الكتاب ، وأحلّ لكم به دار الجهاد ، ووسع لكم به من الرزق ، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشاكرين ، وإن أهل الشكر فى مزيد الله ، فتعالى ربنا وتبارك » (٣) .

ولا غرو أن قال عمر بن الخطاب بحق لأبى عبيدة ابن الجراح فى رحلته إلى الشام ، حيث عرضت له مخاضة فى الطريق ، فنزل عمر عن بعيره ، ونزع خفيه ، ثم أخذ بخطام راحلته ، وخاض المخاضة ، فقال له أبو عبيدة : لقد فعلت - يا أمير المؤمنين - فعلاً عظيماً عند أهل الأرض ! . . فصكّه فى

---

(١) آل عمران : ١٠٣

(٢) كعم فم البعير وغيره : شدّ فاه لئلا يعض ، ومنه قيل : كعمه الخوف فهو مكعوم : أمسك فاه ومنعه من النطق .

(٣) من تفسير الطبرى : ٧/ ٨٧ - ٨٨ ، طبع المعارف .

صدره ، وقال : لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ؟! أنتم كنتم أقل الناس ، وأذلّ الناس ، فأعزكم الله بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله [1] .

وقال عمر الثانى - ابن عبد العزيز - وقد قال له قائل بعد موقف من مواقفه المحمودة : جزاك الله عن الإسلام خيراً يا أمير المؤمنين . فقال له : بل جزى الله الإسلام عنى خيراً !!! [2] . فردّ الحق لأهله .

الحق أن الثقافة أو الحضارة التى نعتزّ بها ، وننتمى إليها ، ثقافة عربية إسلامية معاً . لا نقول هذا تملقاً للعروبة ، ولا مجاملة للإسلام ، إنما هى الحقيقة التى تدل عليها كل الأدلة .

هى ثقافة عربية ، بحكم اللغة الأساسية التى كتبت بها ، وعبرت عنها .

بحكم روح القرآن العربى السارية فى جنباتها ، المؤثرة فى أعماقها .

بحكم تأثير البيان النبوى العربى والأسوة المحمّدية فى مسيرتها .

بحكم أن العنصر العربى كان هو العنصر الأول فى تكوينها .

بحكم أن جزيرة العرب كانت مهبط وحيها ، ومنطلق دعوتها .

وهى مع ذلك ، وقبل ذلك ، ثقافة إسلامية بلا ريب .

بحكم الأهداف التى تتوخاها ، والحوافز التى تدفعها .

بحكم الفلسفة والتصورات التى تحركها وتفجّر طاقاتها .

بحكم الأجناس والعناصر الإسلامية المختلفة التى شاركت فيها عرباً وعجماً .

---

(١) ذكره الحاكم فى المستدرك ، وسكت عليه هو والذهبى : ٣/ ٨٢

(٢) ذكره ابن كثير فى ترجمته من كتابه « البداية والنهاية » : ٩/ ٢٠٩ ، طبع بيروت .

بحكم الرقعة الواسعة التى كانت مجالاً لها من الصين شرقاً إلى شواطىء الأطلسى غرباً .

فالأصوب - إذن - أن نقول : ثقافة عربية إسلامية ، وحضارة عربية إسلامية ، وبذلك ننصف الحقيقة ، وننصف العروبة والإسلام جميعاً .

ويزداد هذا الأمر وضوحاً عندما نبيِّن مكوِّنات هذه الثقافة وخصائصها .

* * *

● مكوِّنات الثقافة العربية :

أعتقد أن مكوِّنات الثقافة - لدى كل أمة - واحدة ، وأهمها الدين ، واللغة ، والقيم والمفاهيم السائدة والمتوارثة . وبالنسبة لنا - نحن العرب - نجد أن مكوِّنات ثقافتنا هى : الإسلام والعربية ، والقيم والمفاهيم المتوارثة والمتراكمة على مدار التاريخ .

وسأكتفى بالحديث عن الاثنين الأولين : الإسلام ، والعربية :

١ - الإسلام :

إن الدين هو المكوّن الأول لثقافة الأُمة ، أىّ أُمة . فهو الذى يخط مجراه فى تفكيرها وضميرها وأغوار وجدانها . وهو الذى يحدد لها فلسفتها الأساسية عن سر الحياة ، وغاية الوجود ، ويجيبها عن الأسئلة الخالدة التى فرضت نفسها على الإنسان فى كل زمان ومكان : مَن أنا ؟ ومِن أين جئتُ ؟ وإلى أين أذهب ؟ ولماذا أحيا ؟ ولماذا أموت ؟

الدين هو الذى يجعل للإنسان هدفاً ورسالة ، ويجعل للحياة معنىً ومذاقاً ، ويصل الوجود الإنسانى بالأزل والأبد ، حين يربطه بالله تعالى خالقه ، وبالخلود فى الدار الآخرة ، التى هى الحيوان - أى الحياة - لو كانوا يعلمون .

والإسلام - خاصة - له تأثيره العميق والشامل فى ثقافة أمتنا العربية

والإسلامية . عن طريق عقائده الإيمانية ، وشعائره التعبدية ، وقيمه الخلقية ، وأحكامه التشريعية ، وآدابه العملية ، ومفاهيمه النظرية .

فهو دين يتغلغل فى حياة الفرد والأسرة والمجتمع ، ويؤثر فى الفكر والشعور والإرادة ، ويوجه العقل والضمير والسلوك ، ويصبغ الحياة كلها بصبغة متميزة ، تتجلّى فى توجهها الرباني ، ونزوعها الإنسانى ، وانضباطها الأخلاقى ، وتحركها الإيجابى ، وتوازنها القيمى .

المسلم يأكل فيسمى الله تعالى ، ويشبع فيحمد الله ، وينام على ذكر الله ، ويستيقظ على ذكر الله ، وتجيئه النعمة فيقول : الحمد لله ، وتصيبه المصيبة فيقول : ﴿ إنَّا لله وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١) .

وكل حياته معجونة بذكر الله تعالى ،والثناء عليه . فـ « الله » تعالى حى فى وجدانه ، حاضر على لسانه .

ومن قريب حضرت مؤتمراً للمسلمين فى إيطاليا ، ولقيت مسلماً إيطالياً فعرفت عن سبب إسلامه : أنه وجد مسلماً مغربياً يعمل بائعاً متجولاً فى البرد الشديد ، فسأله : ما الذى يوقفك فى البرد الشديد ؟ قال : أطلب رزق الله . قال : وهل تكسب ما يكفيك ؟ قال : الحمد لله ، ما أكسبه يكفينى بعضه ، وأرسل الباقى إلى أبوىّ وإخوتى فى المغرب . قال : وهل أنت مسئول عنهم ؟ قال : نعم . رضا الله فى رضا الوالدين ، وصلة الرحم تطيل العمر ؟ قال الإيطالى : يعنى أنت راضٍ عن حياتك هذه ؟ قال : رضا ، ولله الحمد ، ربنا يديم نعمته علىّ . قال الإيطالى : ومن أين تعلمت هذا ؟ قال المغربى : ديننا علّمنا هذا : [ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس] (٢) . قال الإيطالى : فكيف لى أن أعرف دينكم ؟ قال المغربى :

---

(١) البقرة : ١٥٦

(٢) جزء من حديث رواه أحمد والترمذى عن أبى هريرة وحسنه فى صحيح الجامع الصغير (١٠٠) .

أدلّك على المسجد لتقابل إمامه ، وهو يشرح لك ، فأنا رجل أمىّ . وذهب الإيطالى مع المغربى إلى المسجد ، ولم يكن ممن يحافظ على الصلاة أو يرتاد المسجد ، وما هى إلا أيام حتى دخل الرجل فى الإسلام ، وحسن إسلامه ، وأصبح من الملتزمين الغيورين الداعين إلى الإسلام .

ولا يستطيع أحد يعيش فى المجتمع الإسلامى أن ينكر تأثير الإسلام على ثقافته ، إيّاً كان قدره من التدين ، لأن اللغة نفسها مشحونة بمعانى الدين ، والأمثال العامة المنتشرة بين الناس ممزوجة بالدين ، والأفكار والمشاعر الموجهة للسلوك متأثرة بالدين ، أعنى : بالإسلام الذى هو الدين السائد والغالب . حتى الملاحدة والشكاك الذين ظهروا فى تاريخ الأمة – على ندرتهم – لا تخطىء تأثير الإسلام على ثقافتهم ، فالإسلام - بتصوراته وقيمه وأفكاره ومشاعره وآدابه – قوة غالبة ، تؤثر على الفكر والشعور والإرادة من الداخل ومن الخارج ، شعر بذلك المرء أو لم يشعر .

وقد أكد الكثيرون ممن عايشوا المسلمين قليلاً أو كثيراً : أن الدين هو المؤثر الأول فى حياتهم وسلوكهم ، وإن كانوا من العصاة والمنحرفين عن سواء السبيل .

يقول المؤرخ الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى « غوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » : « تأثير دين محمد فى النفوس أعظم من تأثير أى دين آخر ، ولا تزال العروق المختلفة التى اتخذت القرآن مرشداً لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً . أجل قد تجد بين المسلمين عدداً قليلاً من الزنادقة والأخلياء ، ولكن لن ترى مَن يجرؤ منهم علىٰ انتهاك حرمة الإسلام فى عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية كالصلاة فى المساجد وصوم رمضان الذى يراعى جميع المسلمين أحكامه بدقة ، مع ما فى هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها فى صوم الأربعين الذى يقوم به النصارى ، كما شاهدت ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية التى زرتها فى آسيا وإفريقية . ومن ذلك

أتيح لى أن أركب سفينة نيلية كان فيها آفراد عصابة عربية مقرّنين فى الأصفاد ، ومتهمين بأنواع الجرائم ، فقضيت العجب حين رأيتهم - وهم الذين خرقوا حرمة جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بأقسى العقوبات - لم يجرؤوا على انتهاك تعاليم النبى ، وحين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القهار ويعبدوه .

« وعلى مَن يرغب فى فهم حقيقة أمم الشرق - التى لم يدرك الأوربيون أمرها إلا قليلاً - أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها . وللدين - ذى التأثير الضئيل فينا - نفوذ عظيم فيهم ، وبالدين يؤثر فى نفوسهم ، ولولا الدين ما حرك ساكن المصريين ، منذ الثورة التى ضرجت مصر بالدماء - يعنى ثورة ١٩١٩ - إلى أن يقول :

« إن الرجل الذى يخاطب العرب باسم الله يطاع لا محالة ، ما علموا أنه يتكلم باسم الله حقاً .

فعلى الراصد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق . الذى استطاع العرب أن يفتحوا العالَم به فيما مضى ، وهم اليوم يصبرون به على قسوة المصير » (١) .

بل أقول : إن الإسلام يعتبر مكوّناً مهماً لثقافة غير المسلم الذى يعيش فى المجتمع المسلم ، وهو ينضح على تفكيره ووجدانه وعلاقاته ، شعر أو لم يشعر ، أحب أو كره . وهذا ما جعلنى أقول للدكتور لويس عوض عندما زار الدوحة منذ سنوات : إن وجودك فى المجتمع المسلم يقتضى أن تكون مسلماً بالثقافة والحضارة ، وإن لم تكن مسلماً بحكم العقيدة والديانة ! (٢) .

---

(١) من كتاب « حضارة العرب » لـ « غوستاف لوبون » - تعريب عادل زعيتر - ص ٤١٧

(٢) انظر : المجد الثالث من منشورات نادى الجسرة فى قطر « قضايا ثقافية » ص ٤٧

وقد رأينا من إخواننا النصارى العرب الذين لا يجبنون عن التعبير بصراحة عن أثر الإسلام فيهم وفى ثقافتهم مَن تركوا شهادات عادلة على هذه الحقيقة التى نتحدث عنها ، وذلك مثل الشاعر القروى ، ومثل الأستاذ فارس الخورى رئيس وزراء سورية (١) ، ومثل الزعيم السياسى مكرم عبيد فى مصر الذى قال : أنا نصرانى ديناً ، مسلم وطناً .

ويحق للآخرين أن يقول كل منهم : أنا نصرانى ديانة ، مسلم ثقافة وحضارة .

وصلة الدين بالثقافة ليست خاصة بالثقافة الإسلامية ، فكل الثقافات مدينة للأديان فى تكوينها وتوجيهها ، سواء أكان هذا الدين سماوياً أم وضعياً ، حقاً أم باطلاً ، كما هو واضح فى ثقافات الشرق والغرب .

والثقافة الغربية على سبيل المثال ، هى بنت الديانة المسيحية ، بعقائدها وتصوراتها ، ومواريثها وتقاليدها المختلفة .

وهذا ما سجله الدارسون المتعمقون من الغربيين .

يقول « ت . س . إليوت » فى تأثير العقيدة المسيحية فى الثقافة والحضارة الأوروبية : « فى المسيحية نمت فنوننا ، وفى المسيحية تأصلت - إلى عهد قريب - قوانين أوروبا . وليس لتفكيرنا كله معنى أو دلالة خارج الإطار المسيحى . وقد لا يؤمن فرد أوروبى بأن العقيدة المسيحية صحيحة ، ولكن كل ما يقوله ويفعله يأتيه من تراثه فى الثقافة المسيحية ، ويعتمد فى معناه على تلك الثقافة » .

ويقول : « ما كان يمكن أن تُخرج ڤولتير أو نيتشه إلا ثقافة مسيحية . وما أظن أن ثقافة أوروبا يمكن أن تبقى حية إذا اختفى الإيمان المسيحى اختفاءً

---

(١) انظر ما نقلناه من رأيه بصلاحية الإسلام وضرورة تحكيم شريعته ، فى كتابنا « شريعة الإسلام » ص ٩٦ - ٩٧

تاماً . ولا يرجع اقتناعى بذلك إلى كونى مسيحياً فحسب ، بل إننى مقتنع به أيضاً بوصفى دارساً لعلم الأحياء الاجتماعى .

إذا ذهبت المسيحية فستذهب كل ثقافتنا ، وعندئذٍ يكون عليك أن تبدأ البداية المؤلمة من جديد ، ولن تستطيع أن تلبس ثقافة جديدة جاهزة . يجب أن تنتظر حتى ينمو العشب ، ليغذو الضأن ، ليعطى الصوف ، الذى سيُصنع منه رداؤك الجديد ! يجب أن تمر بقرون كثيرة من الهمجية ، ولن نعيش إذن لنرى الثقافة الجديدة لا نحن ولا أحفاد أحفادنا ، ولو عشنا لما سعد بها واحد منا » [1] .

ومثل ذلك يقال فى تأثير الهندوسية فى ثقافة الهند ، والبوذية فى ثقافة الصين وكوريا وغيرهما .

ويمكننا أن نؤكد أنه لا ثقافة بغير دين ، أيّاً كان هذا الدين .

حتى الذين جحدوا الدين وحاربوه نظريّاً وعمليّاً ، كالماركسيين ، الذين طاردوه ولاحقوه حيث كان ، وشردوا رجاله ، وأغلقوا معابده ، وحرّقوا كتبه ، **لم يسعهم إلا أن يصنعوا للناس ديناً جديداً ، يقوم مقام الدين القديم ، إلهه المادة ، ونبيه ماركس ، وجنّته الشيوعية الموعودة ، وشيطانه الرأسمالية ، إلى آخر ما نعرف من مبادىء وطقوس لهذه الديانة ، التى سمى بعضهم أمثالها : أدياناً بغير وحى !**

* *

---

(١) ملاحظات نحو تعريف الثقافة لـ « إليوت » ص ١٤٥ ، ترجمة د . شكرى عياد ، المؤسسة المصرية العامة .

٢ - اللغة العربية :

واللغة - أى لغة - هى المكوِّن الثانى للثقافة ، فهى وعاء العلوم والمعارف جميعاً ، وأداة الإفهام والتعبير العلمى ، والفنى والعادى . ووسيلة التأثير فى العقل والشعور بأدبها ونثرها وشعرها وحكمها وأمثالها وقصصها وأساطيرها ، وسائر ألوانها وأدواتها الفنية .

والله تعالى خلق الإنسان ، علَّمه البيان ، سواء أكان بياناً نطقيّاً أم بياناً خطيّاً ، ليفصح عما فى ضميره بلسان مبين .

وجعل من آياته اختلاف الألسنة ، كاختلاف الألوان .

وكان لكل لسان - أى كل لغة - خصائصه ، التى تظهر فى ثقافته ، وتؤثر فى تفكيره ووجدانه وسلوكه .

وللعربية - خاصة - تأثير بالغ فى ثقافتنا نحن العرب ، لما انفردت به هذه اللغة من مميزات لم تتوافر لغيرها .

وحسبها أن الله أنزل بها كتابه الخالد القرآن : **﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾** (١) ، **﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾** (٢) .

وإن لغة اختارها الله تعالى لينزل بها خاتم كتبه ، وينطق بها خاتم رسله ، ويجعلها لغة العبادة لخاتمة رسالاته ، لجديرة أن تكون سيدة لغات العالَمين .

لقد بلغت العربية الذروة حين نزل بها هذا النص الإلَهى الذى أحكمت آياته ، ثم فصِّلت من لدن حكيم خبير ، ولا يوجد فى أى لغة من لغات الأرض نص إلَهى معصوم ، غير محرَّف ولا مبدَّل ؛ إلا العربية ، التى شرَّفها

---

(١) يوسف : ٢ (٢) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥

الله بالقرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بعد أن حُرِّفت الكتب السماوية جميعاً ، بالأدلة القاطعة التى بيَّنها العلماء قديماً وحديثاً .

لقد ضمنت العربية الخلود ، حين نزل بها القرآن الذى تكفل الله تعالى بحفظه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1] .

وهذا ما جعل لهذه اللغة العزيزة لوناً من القداسة عند العرب المسلمين ، بل عند المسلمين غير العرب ، الذين يجتهدون فى تعلمها ما استطاعوا ، ويتقربون إلى الله بنشرها وتعليمها .

وقد حدث اتصال بين اللغة والدين - وبعبارة أخرى : بين الإسلام والعربية - حتى امتزج أحدهما بالآخر ، امتزاج الروح بالجسد ، فمَن قرأ متن اللغة وشواهدها ، أو نحوها أو صرفها ، وبلاغتها ، ورأى الشواهد والأمثلة فيها ، وجدها ممزوجة بالقرآن مزجاً . وكذلك مَن درس شعرها ونثرها لمس ذلك لمساً .

ومن هنا نجد محاولات بعضهم اليوم تفريغ اللغة من هذه الظواهر الأصيلة فيها ، وعزلها عن القرآن والسُّنَّة ، كما ترى ذلك واضحاً فى المعجم المعروف باسم « المنجد » [2] الذى تعمد حذف كل استشهاد بالقرآن أو الحديث فى آى مادة لغوية .

ولهذا نجد كل مَن يحارب الإسلام يحارب اللغة العربية معه ، إذ لا عربية بغير قرآن ، ولا قرآن بغير بيانه من سُنَّة رسوله الكريم ، الذى أُمِرَ أن يبين للناس ما نُزِّل إليهم .

ولا غرو أن كانت الدعوة إلى العامية بذرة بذرها أعداء الأمة من المستشرقين والمبشرين والأجانب ، ليعزلوها عن الفصحى - لغة القرآن والسُّنَّة

---

(١) الحجر : ٩

(٢) تصنيف الأب اليسوعى لويس معلوف .

والتراث الإسلامى كله - كما تبين ذلك بالوثائق وأكدته الدراسات الأكاديمية [1] .

وكان من أكبر همّ المستعمرين الصليبيين وفروخهم فى كل بلد عربى إضعاف الفصحى ، وإشاعة العامية ، وإعلاء اللغة الأجنبية على اللغة القومية ، كما فعل ذلك « دنلوب » فى نظام التعليم بمصر [2] .

وكان أكبر همهم فى البلدان الإسلامية التى تكتب لغتها بالحرف العربى إلغاء الحرف العربى من الكتابة ، وإحلال الحرف اللاتينى محله ، كما فعلوا ذلك فى تركية وماليزية وبعض البلاد الإفريقية .

وكان همّ الحكم العلمانى فى تركيا محاولة تفريغ التركية من الكلمات العربية التى تشغل منها حيزاً كبيراً ، لتوضع موضعها كلمات لاتينية ، بدعوى أنها كلمات عالَمية !

وما ذاك إلا لأن الكلمات العربية لها تأثيرها وإيحاؤها فى نفس كل مسلم ، كما أنها تُذكِّر أبداً بالقرآن والإسلام ، وتؤكد دائماً روابط الأخوة الإسلامية .

* * *

● خصائص ثقافتنا :

ولا بد - لكى نفهم ثقافتنا بحق - أن نعرف خصائصها العامة ، التى ميَّزتها عن غيرها من الثقافات . وهذا يحتاج إلى بحث مفرد ، ولكننا نشير هنا إلى رؤوسها تبصرة وتذكرة .

---

(١) انظر كتاب « تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها فى مصر » للدكتورة نفوسة زكريا ، وما كتبه الأستاذ محمود محمد شاكر فى كتابه « أباطيل وأسمار » عن هذه القضية ، ودعوة سلامة موسى ولويس عوض وأمثالهما إلى العامية ص ١٥١ - ١٩٤

(٢) بيّن الأستاذ شاكر أن هدف « دنلوب » من نظامه التعليمى هو سيادة اللغة الإنجليزية على اللغة العربية . (انظر : أباطيل وأسمار ص ٥٦٠) .

فمن خصائص هذه الثقافة :

الربانية : فهى ثقافة معجونة بالجانب الإلَهى ، قد امتزجت فكرة الإيمان عامة ، والتوحيد خاصة ، بجوانبها كلها ، وجرت فيها مجرى الدم فى الشعيرات ، فى شعرها ونثرها ، فى أدبها وعلمها وفلسفتها ، فى كتب اللغة وكتب الدين ، وكتب العلم ، على اختلافها ، فيما تزيّن به المساجد ، وفيما تجمَّل به المنازل .

قد يوجد فيها بعض الملاحدة أو الشكاك ، ولكنهم يمثلون الشذوذ الذى يثبت القاعدة ولا ينفيها . ومع هذا تجد نضح هذه الثقافة الربانية عليهم ، أحبوا أو كرهوا .

الأخلاقية : وللعنصر الأخلاقى فيها مكان رحيب ، وأثر عميق ، برز ذلك العنصر حتى فى الجاهلية ذاتها ، كما نلمسه فى شعر حاتم الطائى ، وعروة ابن الورد ، وعنترة العبسى [(١)] ، وغيرهم .

ثم جاء الإسلام ، فعمَّق هذا العنصر أيما تعميق ، ووسّعه أبلغ توسعة ، وربط الأخلاق بأهداف أرحب وأرقى ، وحوافز أنبل وأزكى ، ووصلها بفكرة **الإلزام والجزاء ، جزاء الدنيا وجزاء الآخرة ، وحرّرها من غلوّ الجاهلية وغلوائها ، ورفع الأخلاق مكاناً عليّاً حين جعلها غاية الرسالة : [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق] [(٢)] ، وندد بالعلم الذى لا يثمر خلقاً ولا سلوكاً حسناً .**

---

(١) انظر بعض أشعار هؤلاء فى ديوان الحماسة لأبى تمام .

(٢) رواه ابن سعد والبخارى فى الأدب المفرد ، والحاكم وصححه ، ووافقه الذهبى والبيهقى فى الشعب . كلهم عن أبى هريرة . وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٩) .

وفصَّل آداباً للمعلم والمتعلم ، والقارىء والسامع ، والباحث والمناظر ، بل آداباً لكل شيءٍ في الحياة ، من أدب المائدة إلى بناء الدولة .

واعتبرت الأخلاق ثمرة الاعتقاد الصحيح والتعبد الخالص ، وإلا كان فساد الخُلُق دليل فساد الإيمان ، أو فساد العبادة .

ولا تعترف هذه الثقافة بتجزئة الأخلاق : أخلاق لمعاملة المسلمين ، وأخرى لغير المسلمين ؛ فالخير خير للجميع ، والشر شر على الجميع ، والحلال حلال للكلّ ، والحرام حرام على الكلّ ، لا كما جاء فى توراة اليهود .

كما لا تعترف هذه الثقافة بذلك المبدأ الخطر الشرير : أن الغاية تبرّر الوسيلة ، بل هى لا تؤمن إلا بالوسيلة النظيفة للغاية الشريفة ، ولا تصل إلى الحق بالخوض فى الباطل . فإن الله تعالى طيّب لا يقبل إلا طيباً .

ومن ثَمَّ لا انفصال فى ثقافة الإسلام بين الأخلاق والعلم ، ولا بين الأخلاق والاقتصاد ، ولا بين الأخلاق والسياسة ، ولا بين الأخلاق والحرب .

الإنسانية : ومن خصائص هذه الثقافة : الإنسانية . فلُحمتها وسداها : احترام الإنسان ، ورعاية كرامة الإنسان ، وحقوق الإنسان ، فهى تقوم على اعتبار أن الإنسان « مخلوق مكرّم » من ربه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [1] ، وأن الله جعله فى الأرض خليفة ، وأنه تعالى سخّر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه .

وهى تقوم على تكريم الإنسان من حيث هو إنسان ، بغضّ النظر عن جنسه أو لونه ، أو لغته أو موطنه ، أو طبقته ، بل عن دينه نفسه ، فهو مكرّم بإنسانيته قبل ديانته . ومن المواقف الرائعة ما رواه البخارى عن النبى ﷺ أنه

---

(١) الإسراء : ٧٠

قد مرت عليه جنازة ميت وهو جالس ، فقام لها واقفاً ، فقيل له : إنها جنازة يهودى ؟ فقال : [أليست نفساً] ؟ بلى ، ولكل نفس فى الإسلام حُرْمة ومكان [1] .

العالمية : وما دامت ثقافة لكل إنسان ، فلا غرو أن تكون ثقافة عالَمية المنزع ، والوجهة ، وقد عملت على تقريب الفوارق بين بنى الإنسان ، تلك التى فرَّقت البَشر قديماً وحديثاً ، ولهذا اشترك فيها عرب وعجم ، بيض وسود ، أغنياء وفقراء ، ملوك وسوقة ، مسلمون ونصارى ويهود ومجوس ، ولا تنافى بين انتماء هذه الثقافة إلى العروبة والإسلام من ناحية ، ووصفها بالعالَمية من ناحية أخرى . فهى - كما قلنا - عالَمية النزعة والوجهة ، مفتوحة لكل الجماعات البَشرية ، غير مغلقة على نفسها ، ولا متعصبة ضد غيرها ، مثل الثقافة اليهودية المنغلقة ، التى تقوم على تمجيد جنس خاص ، وشعب معين ، حتى وصفت الله سبحانه بأنه « ربّ إسرائيل » ، واعتبرت الشعب الإسرائيلى - كجنس - شعب الله المختار .

أما ثقافتنا فهى وإن كتبت بالعربية ، وانطلقت من الإسلام ، فالإسلام نفسه عالَمى الرسالة من أول يوم ، جاء يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ [2] لا « يا أيها العرب » ، ويدعو إلى الله ﴿ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [3] لا « رب المسلمين ولا رب العرب وحدهم » . ويعلن أن دعوته عامة لا خاصة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ ﴾ [4] .

التسامح : ومن دلائل هذه العالمية وجود خصيصة « التسامح » فيها ، برغم ظهور العنصر الدينى فيها وغلبته عليها . ولكن الدين الذى قامت عليه ، يؤكد

---

(١) انظر : خصيصة الإنسانية من كتابنا « الخصائص العامة للإسلام » ، طبع مكتبة وهبة ، القاهرة . والرسالة ، بيروت . (٢) البقرة : ٢١ وغيرها .
(٣) الفاتحة : ٢ وغيرها . (٤) الأنبياء : ١٠٧

الإيمان بحقيقتين أساسيتين على غاية من الأهمية ، لتأثيرهما فى فكر الإنسان وسلوكه ، وعلاقاته مع الآخرين المخالفين ، وهما :

الأولى : أن اختلاف البَشر فى الأديان وغيرها واقع بمشيئة الله تعالى المرتبطة بحكمته ، ولا يملك أحد أن يرد مشيئة الله ويُغيِّر سننه فى الكون . يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (١) .

الثانية : أن حسابهم على ما ضلُّوا فيه أو انحرفوا ، إنما هو إلى الله يوم القيامة ، وليس إلى الناس اليوم . وفى هذا يقول الله لرسوله فى شأن المخالفين : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ، اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) .

ولهذا وسعت هذه الثقافة وهذه الحضارة غير المسلمين ، وفسحت لهم مكاناً فى مجتمعاتها ، وأعطتهم ذمة الله وذمة رسوله ، وذمة جماعة المسلمين ، على أن يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، إلا ما اقتضاه اختلاف الديانة ، وبقى هؤلاء على عقائدهم وعباداتهم وشعائرهم ، وبقيت لهم معابدهم ومؤسساتهم ، ولم يُجبروا على شىء يمنعهم دينهم منه ، بل لم يُجبروا على ترك ما يبيحه دينهم لهم كالخمر والخنزير (٣) ، بل شاركوا فى بناء الحضارة الإسلامية ، وكان لهم فى أحيان كثيرة مناصب وزارية وإدارية ومالية ؛ على خلاف ما تعانيه الأقليات والجاليات المسلمة فى كثير من المجتمعات الغربية اليوم ، التى أقامت الدنيا وأقعدتها من أجل طالبات

---

(١) هود : ١١٨ - ١١٩ (٢) الشورى : ١٥

(٣) انظر : كتابنا « غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى » ، فصل « تسامح فريد » ص ٤٧ - ٥٥ ، طبع مكتبة وهبة - الطبعة الثالثة .

مسلمات يلتزمن الحجاب الذى فرضه عليهن الإسلام ، وكذلك من أجل فتح كلية أوروبية خاصة للدراسات الإسلامية ، لتخريج أئمة ووعاظ للجاليات الإسلامية الكبيرة فى داخل أوروبا شرقها وغربها .

التنوّع : ومن خصائص هذه الثقافة « التنوّع » ؛ فهى ليست مجرد ثقافة دينية لاهوتية ، كما يتصور بعضهم .. إنها ثقافة واسعة متنوعة ، فيها الدين بفروعه المتعددة ، واللغة والأدب والفلسفة ، والعلوم الطبيعية والرياضية ، والعلوم الإنسانية ، والفنون المختلفة .

فيها فقه أبى حنيفة ، وأصول الشافعى ، وكلام الأشعرى ، وتفسير الطبرى، ورواية البخارى ، وأدب الجاحظ ، ومعجم الخليل ، ونحو سيبويه ، وبلاغة عبد القاهر ، وطب ابن سينا ، وشعر المتنبى ، ومقامات الحريرى ، وبصريات ابن الهيثم ، ورياضيات البيرونى ، وتصوف الغزالى ، وفلسفة ابن رشد ، وتحليل ابن خلدون ، وخط ابن مقلة ، وألحان الموصلى .

فيها ابن طفيل من الأندلس ، وابن أبى زيد من تونس ، وابن حجر من مصر ، وابن الوزير من اليمن ، والشيرازى من إيران ، والزمخشرى من خوارزم ، والدهلوى من الهند ، وجلال الدين الرومى من تركيا .

فيها صلاح أهل السلوك ، وخلاعة أهل البطالة .

فيها « نهج البلاغة » ، و« ألف ليلة وليلة » .

فيها زهديات أبى العتاهية ، وخمريات أبى نواس .

فيها مرثيات الخنساء ، ومجون ابن أبى ربيعة .

فيها سلفيّة ابن تيمية ، وصوفية ابن عربى .

فيها ظاهرية ابن حزم ، ومقاصدية الشاطبى .

فيها عقلانية الفلاسفة ، والتزام الفقهاء .

فيها اجتهاد المجددين ، وتزمّت المقلدين .

فيها الفِرَق المختلفة من أهل الملَّة ، والفرق المنشقّة عن الملَّة .

فيها الكتب المقروءة التي امتلأت بها المكتبات ، والصور المشهودة التي ازدانت بها الجوامع والمدارس والقصور (الأموى فى دمشق ، والحمراء فى الأندلس ، والأزهر فى مصر ، والسلطان أحمد فى استانبول ، وتاج محل فى الهند) .

إنه التنوّع الشامل أو الشمول المتنوّع .

الوسطية : يكمل خصيصة « التنوّع » خصيصة أخرى هى « الوسطية » أو « التوازن » . فهذه الثقافة تمثل المنهج الوسط ، للأمة الوسط ، بين إفراط الأمم المختلفة وتفريطها . ومع أن الطرفين قد يوجدان داخلها ، إلا أن الصبغة العامة لها ، والطابع الغالب عليها هو الوسطية ، التوازنية ، المستمدة من وسطية الإسلام ، ووسطية أُمَّته : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ (١) .

تجد هذا واضحاً فى الوسطية المتوازنة : بين العقل والوحى ، بين العلم والإيمان ، بين المادة والروح ، بين الحقوق والواجبات ، بين الفردية والجَماعية ، بين الإلهام والالتزام ، بين النص والاجتهاد ، بين المثال والواقع ، بين استلهام الماضى والتطلع إلى المستقبل .

التكامل : ومن خصائص هذه الثقافة أيضاً : التكامل ، التكامل فيما بين بعضها وبعض ، فالثقافة اللغوية تخدم الثقافة الدينية ، وهذه تغذى الثقافة الإنسانية ، وكل هذه تستفيد من الثقافة العلمية .

ومثل ذلك تكاملها مع الثقافات الأخرى ، فهى لا تدعى أنها تنشىء كل

---

(١) البقرة : ١٤٣

شيء من عدم ، وتبدأ رحلة الثقافة من الصفر ، بل أعلنت نصوصها المقدسة أنها جاءت متممة لما كان قبلها لا مبتكرة ، مكملة للبناء الذى بدأه رسل الله من قبل ، مصححة للمسيرة التى داخلها بعض التحريف أو الانحراف . ولهذا قال رسولها عليه الصلاة والسلام : [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق] ، فهو متمم لا مبتدىء ، ومكارم الأخلاق لم تقطع جذورها من الدنيا ، بل هى موجودة ، وإن كان فيها قصور وتناقص ، ومهمته أن يتممها ويكملها .

وموقف الثقافة الإسلامية مع الثقافات الأخرى كموقف نبوة محمد ﷺ مع النبوات الأخرى ، والذى عبّر عنه الحديث الصحيح : [إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلاّ وُضِعت هذه اللَّبنة ؟! فأنا اللَّبنة ، وأنا خاتم النبيين] (١) .

ومقتضى هذا التكامل الذى اتصفت به الثقافة الإسلامية ، أنها لا تجد مانعاً شرعياً يمنعها من اقتباس الحكمة ، والتماس العلم النافع ، والعمل الصالح عند غيرها ، ولو كانوا خصومها . وفى الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه : [الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها] (٢) ، والحديث ضعيف من حيث سنده ، ولكن معناه صحيح ، بإجماع علماء الأمة . وهو ما استقر عليه الفقه والعمل .

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة ، كما فى (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان) ، حديث رقم (١٤٧٣) .

(٢) رواه الترمذى فى أبواب العلم عن أبى هريرة (٢٦٨٨) وقال : حديث غريب ، وذكر أن فيه راوياً يضعّف فى الحديث من قِبَل حفظه . ورواه ابن ماجه فى الزهد (٤١٦٩) .

وقد طلب الرسول الكريم من أسرى المشركين الذين يحسنون الكتابة ، ولم يتيسر لهم دفع الفدية فى غزوة « بدر » أن يفدوا أنفسهم بتعليم كل واحد منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة حتى يحذقوا ، فتعلم منهم عدد كان منهم زيد بن ثابت كاتب الوحى ، وأحد علماء الصحابة رضى الله عنهم [1] .

* * *

(١) رواه ابن سعد عن الشعبى مرسلاً ، كما فى الطبقات : ٢٢/١ ، طبع بيروت .

الفصل الثانى

لكى نكون أصلاء حقّاً

- بين الأصالة والمعاصرة .
- ماذا تعنى الأصالة هنا ؟
- الإسلام فوق التراث .
- قراءة مستبصرة للتراث
- قراءات متحيزة – أو موجهة – للتراث .

* * *

بين الأصالة والمعاصرة

السؤال الكبير الذى طرح نفسه علينا منذ أوائل نهضتنا ، واستفاقتنا على تفوق الغرب الذى طالما آخذ عنا ، وتتلمذ علينا ، وكانت جامعاتنا موئلاً لطلابه ، وكانت كتبنا مراجع لدراسيه ، ثم ها هو اليوم يتغلب علينا عسكرياً ، ويتحكم فينا سياسياً ، ويتفوق علينا حضارياً ، هذا السؤال هو : كيف تكون العلاقة بيننا وبين هذا الوافد الجديد ؟ وبعبارة أخرى : كيف نوازن بين قديمنا وحديثهم ؟ أو بين تراثنا الأصيل ومعاصرهم الدخيل ؟

أنستطيع أن نكون آصلاء ومعاصرين فى الوقت ذاته ؟ أى نحقق ذاتنا ، ونعيش عصرنا ؟ أم لا بدّ لنا أن نختار بين أمرين : إما أن نكون أصلاء ، ونضحّى بالمعاصرة ، أو نكون معاصرين ونضحّى بالأصالة ؟

بتعبير آخر : هل العلاقة بين التراث القديم والوافد الحديث - أو بين الأصالة والمعاصرة - هى علاقة التضادّ والتناقض ؟ فلا أمل فى الجمع بينهما ، أو هى علاقة التنوّع والتكامل وهنا يمكن الجمع بينهما ؟

السؤال خطير ، والجواب مهم ؛ وخصوصاً فى هذه المرحلة التى تسعى فيها أمتنا لتحقيق ذاتها ، بعد أن اكتشفت ذاتها التى غابت أو غُيِّبت عنها زمناً .

وقد أجاب عنه أناس بافتراض التناقض بين الأمرين ، فاختار فريق التراث والأصالة ، وعاشوا غرباء عن العالَم والزمان .

واختار آخرون العصر والحداثة ، وعاشوا غرباء عن الأهل والمكان .

وبقى آخرون متردّدين بين أولئك وهؤلاء .

ولكن الموقف الصحيح هو الذى يُتخذ بعد الدراسة المتأنية لكل من الأمرين

المعروضين ، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره . والتسرّع فى مثل هذه المواقف الفكرية قد يوقع صاحبه فى هوّة لا يخرج منها إلا ما شاء الله .

وقد عرض علينا أحد المفكرين المرموقين من العرب كيف سقط فى هذا الخطأ الشنيع من قديم ، حين تسرّع فى الجواب بغير علم عن هذا السؤال ؛ إنه الدكتور زكى نجيب محمود ، الذى يحكى لنا ذلك فى كتابه « تجديد الفكر العربى » حين واجه السؤال عن طريق للفكر العربى المعاصر ، يضمن له أن يكون عربياً حقاً (أى أصيلاً) ومعاصراً حقاً :

« إذ قد يبدو للوهلة الأولى أن ثمة تناقضاً أو ما يشبه التناقض بين الحدّين ، لأنه إذا كان عربياً صميماً ، اقتضى ذلك منه أن يغوص فى تراث العرب الأقدمين حتى لا يدع مجالاً لجديد - وإن من أبناء الأمة العربية اليوم مَن قد غاصوا هذا الغوص الذى لم يُبق لهم من عصرهم ذَرّة هواء يتنفسونها - وأما إذا كان معاصراً صميماً ، كان محتوماً عليه أن يغرق إلى أذنيه فى هذا العصر بعلومه وآدابه وفنونه وطرائق عيشه ، حتى لا تبقى أمامه بقية ينفقها فى استعادة شيء من ثقافة العرب الأقدمين .

نعم ، قد يبدو للوهلة الأولى أن بين العربية والمعاصرة تناقضاً أو ما يشبه التناقض ، ولذلك يجيء السؤال الذى يلتمس طريقاً يجمع الطرفين فى مركّب واحد ، وكأنما هو سؤال يطلب أن تجتمع مع الماء جذوة نارة ؛ فهل بين الطرفين مثل هذا التعارض حقاً ؟ أو أن ثمة طريقاً يجمع بينهما ؟ ذلك هو السؤال » .

يقول الدكتور : « ولقد تعرضتُ للسؤال منذ أمدٍ بعيد ، ولكنى كنت إزاءه من المتعجلين الذين يسارعون بجواب قبل أن يفحصوه ويمحّصوه ليزيلوا منه ما يتناقض من عناصره ؛ فبدأتُ بتعصب شديد لإجابة تقول : إنه لا أمل فى حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً ، وعشنا مع مَن يعيشون فى عصرنا علماً وحضارة ، ووجهة نظر إلى الإنسان والعالَم ، بل إنى تمنيت عندئذٍ أن

نأكل كما يأكلون ، ونجدّ كما يجدّون ، ونلعب كما يلعبون ، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون !! على ظنٍّ منى آنئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ ، فإما أن نقبلها من أصحابها - وأصحابها اليوم هم أبناء أوروبا وأمريكا بلا نزاع - وإما أن نرفضها ، وليس فى الأمر خيار بحيث ننتقى جانباً ونترك جانباً ، كما دعا إلى ذلك الداعون إلى اعتدال ؛ بدأت بتعصب شديد لهذه الإجابة السهلة ، وربما كان دافعى الخبىء إليها هو إلمامى بشىء من ثقافة أوروبا وأمريكا ، وجهلى بالتراث العربى جهلاً كاد أن يكون تامّاً ، والناس - كما قيل بحق - أعداء ما جهلوا .

ثم تغيرت وقفتى مع تطور الحركة القومية ، فما دام عدونا الألدّ هو نفسه صاحب الحضارة التى توصف بأنها معاصرة ، فلا مناص من نبذه ونبذها معاً ، وأخذت انظر نظرة التعاطف مع الداعين إلى طابع ثقافى عربى خالص ، يحفظ لنا سماتنا ويردّ عنا ما عساه أن يجرفنا فى تياره فإذا نحن خبرٌ من أخبار التاريخ ، مضى زمانه ولم يبق منه إلا ذكراه : لكننى حين أخذت أتعاطف مع هذه النظرة العربية الخالصة ، كنت إزاءها بلا حول ؛ فهذا مجال لم يكن لى فيه نصيب يذكر ، فلا أنا قد أتيحت لى - أيام الدرس - فرصةٌ كافية للإلمام بقسط موفور من تلك الثقافة العربية الخالصة - اللّهم إلا النزر اليسير الذى كان يتلقاه التلميذ فى المدارس المدنية - ولا أنا أستطيع أن أجد الفراغ لأتوفر على الدرس من جديد .

وأحمد الله أن أتاح لى آخر الأمر هذا الفراغ ، كما أتاح لى مكتبة عربية أقضى فيها بعض ساعات النهار » [1] يقصد مكتبة جامعة الكويت التى كان يعمل بها أستاذاً للفلسفة .

---

(١) انظر : تجديد الفكر العربى ص ١٢ - ١٤ ، طبع دار الشروق ، القاهرة .

هكذا عبر الرجل عن موقفه بصراحة وشجاعة : أنه لا أمل فى حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً ، وعشنا مع مَن يعيشون فى عصرنا علماً وحضارة ، ووجهة نظر إلى الإنسان والعالَم ، نأكل كما يأكلون ، ونجدّ كما يجدّون ، ونلعب كما يلعبون ، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون !!

وإذا كان الدكتور زكى نجيب محمود قد اكتشف خطأه فى التسرع بالجواب عن السؤال الكبير ، قبل أن يعرف شيئاً عن تراث أمته وثقافتها ، وطفق يعالج هذا الخطأ بالقراءة والدراسة للتراث ، بعد أن فات ما فات من العمر ، وأصدر عدة كتب ودراسات حول الموضوع [١] ، فإن كثيرين من تلاميذ الغرب لم يكتشفوا ما اكتشف من خطأٍ ، وربما اكتشفوه ولم تسعفهم الشجاعة ليعلنوه ، ولم يواتهم العزم ليعالجوه ، وربما كانت لهم مصالح وارتباطات وولاءات تحتم عليهم أن يظلوا مُصرِّين على ما هم عليه ، مدافعين عنه بكل ما يستطيعون .

وثمت آخرون راضون كل الرضا بموقفهم التبعى المقلد للغرب ، اقتناعاً منهم لا خوفاً ولا طمعاً ، كمن وصف الله تعالى بقوله : ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً** ﴾ [٢] .

إن الموقف العلمى السليم أن نتبين : ماذا تعنى الأصالة ؟ أو ماذا يُطلب منا لكى نكون أصلاء حقّاً ؟ وماذا تعنى المعاصرة ؟ أو ماذا يُطلب منا لكى نكون معاصرين حقّاً ؟ ثم ننظر : **هل يوجد تناقض بين الأمرين ؟ بحيث إذا قُبِل أحدهما رُفِض الآخر ؟ أو أن كلاً منهما يكمل الآخر ، ولا بد أن نعيش بهما معاً ؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه فيما يلى من صحائف .**

* * *

---

(١) منها : تجديد الفكر العربى ، وفى تحديث الثقافة العربية ، وثقافتنا فى مواجهة العصر ، وغيرها .

(٢) فاطر : ٨

ماذا تعنى الأصالة هنا ؟

إن « الأصالة » التى نؤمن بها ، وندعو إليها وصفاً أساسيّاً لثقافتنا ، ليست محض كلمة تقال ، ولا دعوى تدّعى ، إنها حقيقة ثابتة ، لها معانٍ تقوم عليها ، ودلائل تنبىء عنها .

وتركيزنا على وصف ثقافتنا العربية الإسلامية بالأصالة ليس لمجرد التباهى والفخر ، بل هو مؤشر أو مفتاح لمجموعة من المعانى الكبيرة ، يجب التنبيه عليها :

١ - ضرورة المعرفة والفهم لثقافتنا :

وأول هذه المعانى التى تتطلبها الأصالة هى المعرفة والفهم : فهم هذه الثقافة بخصائصها الذاتية ، ومكوّناتها الأساسية . فهمها من مصادرها الأصيلة ، وليس من المصادر الهامشية أو المدخولة ، أو المنحولة ، أو الواهية .

فهمها من أهلها الثقات لا المجروحين ، ناهيك بغير أهلها ، من الدخلاء عليها ، الغرباء عنها .

فهمها بأدواتها ومناهجها الخاصة ، لا بأدوات ومناهج غريبة عنها ، مفروضة عليها .

لقد رأينا مَن يرفض رواية صحيحى البخارى ومسلم ، ويأخذ برواية كتاب « الإمامة والسياسة » المعزوّ لابن قتيبة ، وهو كتاب لقيط ، منحول لابن قتيبة .

رأينا مَن يطعن فى أسانيد المُحَدِّثين ، ويعتمد أسانيد كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى .

رأينا مَن يستند إلى روايات عن عصر الفتنة الكبرى ذكرها الطبرى مثلاً ، بأسانيد واهية مردودة ، فاعتبر هؤلاء مجرد ذكرها من عالِم كبير توثيقاً لها ، وهو قد برىء من العهدة بذكر سندها : وعلى الباحث أن يرجع إلى علم

الرجال ، ليعرف إن كان الراوى معدّلاً أو مجروحاً . وقد بيَّن فى مقدمته [1] لماذا اتبع هذا المنهج ، ولم يدقق كما دقق فى كتب الآثار أو كتب الفقه ، التى يُعرف بها الحلال والحرام ؟

إن كتب الحديث ، المروية بالأسانيد نفسها ، فيها الضعيف والموضوع ، فكيف بغيرها ؟

رأينا مَن يحكم على تاريخ الأمة - وخصوصاً فى أفضل عصورها - معتمدين على ما تذكره كتب الأدب والنوادر والأقاصيص ، التى تروى الغثّ والسمين ، والصدق والكذب ، وكأن بحسبهم أنهم وجدوه فى كتاب ، ولو كان « ألف ليلة وليلة » !

رأينا من يعتبر المستشرقين حُجَّة فى كل ما يكتبون ، ولا يحاول أن يمتحن آراءهم ، ويناقش استدلالاتهم ، ويقارن دعاويهم بعضها ببعض . ولو فعل لوجد الكثير الكثير من التهافت والتناقض والخطل المبين ، والدعاوى العريضة بغير برهان . ولتبيَّن له أن ثمّت نقاط ضعف أساسية فيما يكتبه المستشرقون عن ثقافتنا ، نبّهنا عليها فى بعض ما كتبناه من قبل ، هى :

أولاً : عدم تمكنهم من اللغة العربية ، وتذوقهم لها ، وتفهمهم لدلالاتها المتنوعة ، وهذا لا بد أن يكون له انعكاسه على مدى فهمهم للمصادر الإسلامية الأصيلة ، وخصوصاً القرآن العزيز ، والسُّنَّة المشرفة ، ولهذا كان فهمهم للإسلام ورسالته مشوشاً ومنقوصاً .

ثانياً : عقدة تفوق الإنسان الغربى ، والعقل الغربى ، والحضارة الغربية ، والنظر إلى الغرب أنه سيد العالَم ، وأن أوروبا أم الدنيا ، وأن التاريخ من الغرب بدأ ، وإليه يعود .

---

(١) انظر : تاريخ الطبرى : ١/٧ ، ٨ ، طبع دار المعارف .

ثالثاً : الانطلاق من مسلّمات غير قابلة للامتحان عند الإنسان الغربى ، وهى أن القرآن ليس كلام الله ، وأن محمداً ليس رسول الله ، فهو قد كوّن فكرته مقدَّماً قبل أن يبحث ، ثم هو يسعى فى بحثه للاستدلال عليها بكل ما يمكنه ، وفى سبيل هذا يقبل الواهيات من الروايات ، ويُصدِّق الأكاذيب ، ويُضخِّم الوقائع الصغيرة ، ويجعل من الحبّة قبّة ، ومن الشبهة حُجَّة ، ويستدل بما ليس بدليل ، ويرفض ما يخالف وجهته وإن كان فى وضوح الشمس .

رابعاً : أن دراسات المستشرقين كثيراً ما تكون موجهة لخدمة أهداف عملية ، مطلوبة منهم لهذه الدولة أو تلك . وكثيراً ما تُرصد الملايين لتحقيق هذه البحوث ، وهذا ما يجعل هذه الدراسات غير مبرأة من الغرض [١] .

وقد بين العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر فى رسالته القيمة النافعة « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » أن المستشرق الذى يدخل ثقافتنا دارساً مناقشاً ، لا يمكنه أن يتحرر من ذاتيته ، وسلطان لغته وثقافته ودينه ، وأن يكون محايداً موضوعياً فيما يدرسه ويكتبه ، وذلك من عدة طرق ، تجعل مهمته صعبة كل الصعوبة ، بل تكاد تكون مستحيلة على مثله :

« فمن طريق « اللغة » التى نشأ فيها صغيراً ، فإنه يسدّده أو يتهدّده ، الإحاطة بأسرار « اللغة » وأساليبها الظاهرة والباطنة ، وعجائب تصاريفها التى تجمعت وتشابكت على مرّ القرون البعيدة ، فصارت ألفاظها وتراكيبها الموروثة والمستحدثة تحمل - من كلّ زمان مضى وكل جيل سبق - نفحةً من نفحات البيان الإنسانىّ بخصائصه المعقّدة والمكتّمة ، أو خصائصه السمحة والمستعلنة . وبين تمام الإحاطة باللغة وقصور الإحاطة بها ، مزالقُ تزلّ عليها الأقدام ، ومخاطر يُخْشَى معها أن تنقلب وجوه المعاني مشوّهة الخَلقَة مُستَنْكرَة المَرْآة ، بقدر بُعْدها عن الأسرار الخفية المُسْتكِنَّة فى هذه الألفاظ والتراكيب .

---

(١) انظر كتابنا : « أولويات الحركة الإسلامية » ص ١٨٣

ومن طريق « الثقافة » ، فإن « الثقافة » - فاعْلَمْ - تكاد تكون سراً من الأسرار الملثَّمَة فى كل أمة من الأمم وفى كل جيل من البَشر . وهى فى أصلها الراسخ البعيد الغَوْر ، معارف كثيرةٌ لا تحصى ، متنوِّعة أبلغَ التنوع لا يكادُ يُحاط بها ، مطلوبةٌ فى كل مجتمع إنسانى للإيمان بها أولاً عن طريق العقل والقلب ، ثم للعمل بها حتى تذوب فى بُنيان الإنسان وتجرى منه مجرى الدّم لا يكاد يُحَسّ به ، ثم للانتماء إليها بعقله وقلبه وخياله انتماءً يحفظه ويحفظها من التفكّك والانهيار ، وتحوطُه ويحوطها حتى لا يفضى إلى مفاوز الضياع والهلاك . وبين تمام الإدراك الواضح لأسرار « الثقافة » وقصور هذا الإدراك ، منازلُ تلتبس فيها الأمور وتختلط ، ومسالك تَضِلّ فيها العقول والأوهام حتى ترتكس فى حمأة الحيرة ، بقدر بُعْدها عن لباب هذه « الثقافة » وحقائقها العميقة البعيدة المتشعِّبة .

ومن طريق « الأهواء » وهى التى تسرى فى خفاء وتدبّ ، إلا أنها لا تدبّ ولا تأتيك إلاّ متبرّجة فى تمام زينتها من « اللغة » ومن « الثقافة » ، متردّية برداء براءة القصد وخُلوص النية ، متحليةً بجواهر الدقة والاستيعاب والتمحيص والمهارة والحِذق ، حتى يتاح لصاحبها أن يقتنص غفلتك ، ويتلعّب عندئذٍ بك وبعقلك ما شاء له التلعّب ، من حيث يوهمك أنه قد استوعب لك جمع « المادة » ، ويهوّل عليك تهويل السحرة بما يحشد تحت عينيك ويستكثر ، مخفياً عنك بتمويهه من « المادة » ما قد يبطل ما أراد به سحر عينيك واهتبالَ غفلتك ، ثم استلحاق عقلك بعقله ، إذ أنت عندئذٍ مفتون بالزينة المتبرّجة ، وبتحاسين رداء البراءة وخلوص النية ، وبالحلىّ النفسية المتلألئة التى يتطلّبها « ما قبل المنهج » بشطريه : « المادة » ، و« التطبيق »

إذ أنت هائم معه ، مريد أو غير مريد ، (فى إثر كل قبيح وجهه حسن) [(١)] كما يقول أبو الطيب » [(٢)] أ هـ .

المثقف « الأصيل » حقاً مَن وفق لمعرفة هذه الثقافة من مصادرها الحقة ، واستقاها من ينابيعها الصافية ، وعَلَّ منها ونهل ، وأخذ منها بقدر ما اتسع واديه : ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [(٣)] .

أما مَن جهل هذه الثقافة ، وحُرِم من السياحة فى رحابها ، أو التنزه فى رياضها ، فموقفه منها موقف الجاهل لما يجهله . وقد قال العرب : مَن جهل شيئاً عاداه . وفى القرآن تصديق ذلك حيث يقول الله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [(٤)] .

وكثير من مثقفى عصرنا من حملة الألقاب الكبيرة من هذا الصنف ، ومنهم مَن شب على ذلك وشاب عليه ، ومات عليه .

ومنهم مَن أراد الله به خيراً ، ففتح له باباً إلى هذه الثقافة ، جعله يُغيِّر رأيه ، ويُعَدِّل من موقفه كثيراً أو قليلاً ، معترفاً بذلك فى شجاعة تُذكر له فتُشكر .

من هؤلاء الأستاذ إسماعيل مظهر ، صاحب مجلة « الفصول » ومترجم كتاب « أصل الأنواع » لدارون ، وقد كان دارونياً خالصاً ، ثم كتب فى (سنة ١٩٦٠ م) كتابه « الإسلام أبداً » فانتقل - كما يقول الدكتور

---

(١) انظر : « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » للأستاذ شاكر ، وبخاصة الصفحات ٤١ - ٤٤ ، طبع دار الهلال بمصر .

(٢) هو من قوله يذكر أهل العشق :

مما أضرّ بأهل العشــق أنهــمُ	هَوُوا ، وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تفنَى عيونهم دمعاً ، وأنفسهم	فى إثر كل قبيـح وجهُــهُ حســنُ

(٣) الرعد : ١٧

(٤) يونس : ٣٩

حسن حنفى [1] من طرف إلى طرف ، ومن نقيض إلى نقيض ، ومن الحديث إلى القديم ، ومن الجديد إلى التراث ، ومن الوافد إلى الموروث .

ومن هؤلاء الدكتور مصطفى محمود الذى بدأ شاكاً أو ملحداً ، معتنقاً للفكر الماركسى المادى ، كما بدا ذلك فى كتابه « الله والإنسان » ، ثم انتقل من الجحود إلى اليقين ، ومن الشك إلى الإيمان ، ومن الماركسية إلى الإسلام ، وأصدر فى ذلك كتباً ، وحرَّر مقالات ، وقدّم برنامجه الشهير فى التليفزيون « العلم والإيمان » . بل حاول الاتجاه نحو فهم عصرى للقرآن ، لم يسلم من بعض الشطط ، وهو ما أنكره عليه كثيرون من أهل الاختصاص .

ومن هؤلاء - كما ذكرنا من قبل - الدكتور زكى نجيب محمود ، الذى أعلن ذلك فى صراحة فى مقدمة كتابه « تجديد الفكر العربى » قال : « لم تكن قد أتيحت لكاتب هذه الصفحات فى معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة الأمد ، تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربى على مهل ، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب ، الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبى - قديم أو جديد - حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنسانى الذى لا فكر سواه ، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه ، ولبثَتْ هذه الحالُ مع كاتب هذه الصفحات أعواماً بعد أعوام : الفكر الأوروبى دراسته وهو طالب ، والفكر الأوروبى تدريسه وهو أستاذ ، والفكر الأوروبى مسلاته كلما أراد التسلية فى أوقات الفراغ ؛ وكانت أسماء الأعلام والمذاهب فى التراث العربى لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة ، كالأشباح الغامضة يلمحها وهى طافية على أسطر الكاتبين .

---

(١) من بحث له عن « الموقف من الغرب : الماضى ، والحاضر ، والمستقبل » قدمه لمؤتمر « الثقافة العربية » بالقاهرة ، الصيف الماضى (سنة ١٩٩٢) .

« ثم أخذته فى أعوامه الأخيرة صحوة قلقة ؛ فلقد فوجىء وهو فى أنضج سنيه ، بأن مشكلة المشكلات فى حياتنا الثقافية الراهنة ، ليست هى : كم أخذنا من ثقافات الغرب وكم ينبغى لنا أن نزيد ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لهان ، فما علينا عندئذ إلا أن نضاعف من سرعة المطابع ، ونزيد من عدد المترجمين ، فإذا الثقافات الغربية قد رصت على رفوفنا بالألوف بعد أن كانت ترص بالمئين ، لكن لا ، ليست هذه هى المشكلة وإنما المشكلة على الحقيقة هى : كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذى بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه ، وبين تراثنا الذى بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها ؟ إنه لمحال أن يكون الطريق إلى هذه المواءمة هو أن نضع المنقول والأصيل فى تجاور ، بحيث نشير بأصابعنا إلى رفوفنا فنقول : هذا هو شيكسبير قائم إلى جوار أبى العلاء ؛ فكيف إذن يكون الطريق ؟

« استيقظ صاحبنا – كاتب هذه الصفحات – بعد أن فات أوانه أو أوشك ، فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه ، فطفق فى بضعة الأعوام الأخيرة ، التى قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية ، يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان ، أخذ صاحبنا – وما يزال – يعب صحائف التراث عبّاً سريعاً ، والسؤال ملء سمعه وبصره : كيف السبيل إلى ثقافة موحدة متسقة يعيشها مثقف حى فى عصرنا هذا ، بحيث يندمج فيها المنقول والأصيل فى نظرة واحدة » ؟ [١] .

ولا يزال تيار الأصالة يكسب يوماً بعد يوم من أنصار « التغريب » الخلصاء أو المهجّنين ، من مختلف مدارسه المادية أو العلمانية ، الماركسية أو الليبرالية ، ويضيف إلى رصيده جديداً ، مسلّحاً بأسلحة الغرب ذاته ، قادراً على الدفاع والهجوم بفكر العصر ، ومناهج العصر .

بَيْد أن الذى نركز عليه هنا : أن الأصالة الحقة لا تكون بمجرد الدعوى

---

(١) مقدمة كتاب « تجديد الفكر العربى » للدكتور زكى نجيب محمود ، طبع دار الشروق – بيروت .

أو الإعلان . بل لا بد من الاطلاع الكافى على أصول ثقافتنا ، مما لا يسع المثقف العربى المسلم جهله .

ليس من الضرورى أن يقرأ كل ما قرأه مثلاً الأستاذ محمود شاكر ، حين بدأ رحلته مع التراث وثقافته ، مما حدثنا عنه فى مقدمة كتابه عن « المتنبى » ونشرته « دار الهلال » فى « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » (١) .

لكن هنا حدود دنيا لمن يريد أن يتعرف على هذه الثقافة ، ويفتح مغاليقها ، ويفقه سرها .

وفى مقدمة ذلك : اللغة العربية وعلومها وآدابها .

ثم تأتى علوم الشريعة بشتَّى فروعها : التفسير وعلوم القرآن ، والحديث وعلومه ، والفقه وأصوله ، والعقيدة وما يتصل بها ، والتصوف والأخلاق .

وفى كل علم من هذه العلوم أصول وفروع ، وله مداخل ومفاتيح ، وفيه مدارس ومذاهب ، وله مصادر ومراجع ، تولَّدت منها متون وشروح ، وحواشٍ ، منها المبسوط ، ومنها الوسيط ، ومنها الوجيز ، ومنها الخلاصة .

أضف إلى ذلك السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى العام ، وتاريخ الطبقات والتراجم العامة والخاصة ، وتاريخ العلوم ومصادرها .

وليس مطلوباً ولا ممكناً أن يتعمق « المثقف الأصيل » فى كل هذه المعارف ، ويسبر أغوارها ، وإنما ينبغى أن يلم بها ، ولو إلمامة سريعة ، على نحو ما قالوا

---

(١) انظر : الفقرات : ١ ، ٣ ، ١٠ من الرسالة المذكورة - صفحات ١٠ - ١٣ ، ٣٦ ، ٣٧ - وفيها ذكر أنه قرأ كل ما وقع تحت يده من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع ، حتى قرأ الفلسفة القديمة ، والحساب القديم ، والجغرافية القديمة ، وكتب النجوم ، وصور الكواكب ، والطب القديم ، ومفردات الأدوية ، وحتى قرأ البيزرة والبيطرة والفراسة . . إلخ ، لا ليتمكن من هذه العلوم ، بل ليلاحظ ويتبين ، ويزيح الثرى عن الخبىء والمدفون كما قال .

عن الأديب : هو مَن يعرف شيئاً عن كل شيء ، بخلاف العالِم فهو مَن يعرف كل شيء عن شيء .

والمثقف فى عصرنا هو الأديب فى العصور الماضية .

* *

٢ - الاعتزاز بالانتماء الإسلامى العربى :

وثانى ما تتطلبه الأصالة منا هو : الاعتزاز بانتمائنا إلى الإسلام المؤثر الأول فى صنع هذه الثقافة ، والذى وجّهها وجهته ، وصبغها صبغته : ﴿ صِبْغَةَ اللهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ﴾ (١) .

هو الذى حدد الأهداف ورسم المناهج ، وأعطى الحوافز وأرسى الدعائم ، وربّى الإنسان الذى يفكر ويريد ويتحرك فى ضوء كتابه الهادى للتى هى أقوم ، وسنّة رسوله الذى جعله الله أسوة حسنة للمؤمنين ، وختم برسالته كل رسالات السماء .

هذا الاعتزاز بالانتماء الإسلامى هو واجب كل مسلم رضى بالله تعالى ربّاً ، وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً ، وبمحمد ﷺ نبيّاً ورسولاً .

فهو يعتز بنعمة الإسلام : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (٢) . إنه دين الله الواحد ، دين الرسل جميعاً ، الذى لا يقبل الله ديناً غيره : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ ﴾ (٣) . وهو يعتز برسالة محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ١٣٨ (٢) المائدة : ٣

(٣) آل عمران : ١٩ (٤) آل عمران : ١٦٤

إنه الرسول الخاتم الذى بعثه الله مُصدِّقاً لما بين يديه ، ومصحّحاً لما حُرِّف وبُدِّل من الرسالات ، ومتمّماً لما جاء بها مما كان مناسباً للزمان والمكان وحال الإنسان ، فكان عنوان رسالته التيسير لا التعسير ، والتبشير لا التنفير ، ورفع الحرج عن الدين ، والعنت عن المكلفين ، وكان وصف رسالته فى كتب أهل الكتاب من التوراة والإنجيل ، أنه : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) . وهو يعتز بأعظم كتاب أنزله الله ، وهو القرآن ، الذى ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٢) . هو دستور الخالق لإصلاح الخلق ، وقانون السماء لهداية الأرض : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (٣) . إنه الكتاب الذى تحدَّى العرب فأعجزهم ولا يزال تحديه قائماً ، وإعجازه متجدداً ، وهدايته دائمة إلى قيام الساعة .

وهو يعتز بانتسابه إلى « الأمة الوسط » التى بوأها الله مكان الشهادة على سائر الأمم : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (٤) ، ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ (٥) .

فهى أمة دعوة ورسالة ، وليست أُمة عنصرية منغلقة على نفسها ، كبنى إسرائيل ، أمة هداية وليست أُمة جباية .

ولكن العربى يضيف إلى هذا الاعتزاز اعتزازاً آخر ، بأنه ينتمى إلى أهل

---

(١) الأعراف : ١٥٧ (٢) فصلت : ٤٢ (٣) الإسراء : ٩

(٤) البقرة : ١٤٣ ، وانظر تفسير هذه الآية من « ظلال القرآن » للشهيد سيد قطب لتتبين فيها مظاهر الوسطية المادية والمعنويه التى تميزت بها هذه الأمة ، وراجع خصيصة الوسطية من كتابنا « الخصائص العامة للإسلام » ، طبع مكتبة وهبة ، والرسالة .

(٥) آل عمران : ١١٠

رسول الله ﷺ ، ويتكلم بلغة القرآن ، ويفهم عن الله ورسوله دون ترجمان . ويعيش فى أرض تعتبر مأرز الإسلام ، ومعقله ، قريباً من مقدسات الإسلام ، ومساجد الإسلام الكبرى ، التى لا تُشَدّ إلا إليها الرحال . يقول الله تعالى لرسوله : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ (١) . معنى « ذِكْرٌ لَّكَ » : أى فخر ومجد لك ولقومك ، تذكركم به الأمم . ويقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) . أى فيه شرفكم وفخركم تُذكرون به أبداً .

هذا الاعتزاز بانتمائنا الإسلامى العربى ، هو مقتضى الأصالة ، فالأصيل هو مَن كان له أصل يرجع إليه ، ونسب يعول عليه ، وأهل يحتمى بهم ويلجأ إليهم ، إذا عدا عليه عادٍ ، أو استخف بحرماته مستخفّ .

أما الدعِىّ الزنيم ، فليس له ما يعتز به ، أو ينتمى إليه ، ويستوى عنده الشريف والوضيع ، والأصيل والدخيل ، والنسيب واللقيط ، بل لعله يفضل الثانى على الأول ، دفاعاً عن خسته ، وتبريراً لوضاعته ، من حيث يشعر أو لا يشعر .

وقد نقلنا عن عمر الأول : ابن الخطاب ، وعن عمر الثانى : ابن عبد العزيز ما ينبىء عن هذا الاعتزاز .

وننقل هنا ما يؤكد هذا من كلمات ربعى بن عامر أمام رستم قائد جيوش الفُرْس ، وهى كلمات كأنها نور من الكلام أو كلام من النور ، كما يقول الرافعى رحمه الله . فقد سأله رستم : مَن أنتم ؟ فقال ربعى رضى الله عنه :

---

(١) الزخرف : ٤٣ - ٤٤ (٢) الأنبياء : ١٠

« نحن قوم ابتعثنا الله لنُخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » ! [(١)] .

بهذه الكلمات القليلة لخص هذا الصحابى فلسفة الإسلام وأهدافه الكبرى فى حياة البَشرية ؛ إنها رسالة تحرير وتطهير ، وإنقاذ وإصلاح .

هذا هو الاعتزاز الذى نريده من المثقف العربى المسلم ، الذى ينتمى إلى ثقافة العرب والمسلمين ، ويشعر أنه عضو حى فى جسم هذه الأمة العظيمة .

نريد من العربى المسلم أن يتحرر من عقدة النقص التى يعانى منها بعض الناس تجاه الثقافة الغربية ، والحضارة الغربية ، واللغات الغربية ، والتقاليد الغربية ، والأزياء الغربية ، حتى الرذائل الغربية والمنكرات الغربية !!

أجل . . من الناس مَن يحمرّ وجهه خجلاً إذا لم يشارك القوم فى شرب الخمر - إذا كان ضيفاً ، وفى تقديمها إذا كان مضيفاً - وفى مراقصة امرأة صديقه ، ومراقصة صديقه لامرأته ، على أنغام الموسيقى الصاخبة !

نريد من العربى المسلم أن يكون محور اعتزازه الإسلام قبل أى شىء آخر ، أى قبل العرق والقبيلة ، والإقليم والطبقة ، وأن ينشد مع العربى القديم :

أبى الإسلام لا أب لى سواه　　إذا افتخروا بقيس أو تميم !

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [(٢)] .

وإنما كان لهذا القول : ﴿ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قيمة ، لأنه يقوله معتزاً

---

(١) انظر : تاريخ الطبرى : ٣/٥١٧ - ٥٢٩ ، طبع دار المعارف ، وتأمل فيها مواقف زهرة بن الحوية ، وربعى بن عامر ، وحذيفة بن محصن ، والمغيرة بن شعبة ، وفود سعد بن أبى وقاص - وكلماتهم المضيئة أمام رستم ورجاله ، لتجد فيها اليقين والثقة والاعتزاز البالغ .

(٢) فصلت : ٣٣

مغالياً بمبدئه ، مباهياً بدعوته ، كما قال الله تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .

ونريد من العربى شيئاً آخر ، وهو الاعتزاز بلغته ، لغة القرآن والحديث والثقافة الإسلامية ، وأن يعمل على أن تكون لغة الحياة ، ولغة العلم ، ولغة الثقافة ، وقد كانت لغة العلم الأولى فى العالَم كلّه لعدة قرون ، فلا يجوز أن تعجز اليوم عما قامت به بالأمس .

* *

٣ - العودة إلى الأصول :

وثالث ما تتطلبه منا الأصالة - إذا كنا أصلاء حقّاً - أن نعود إلى أصولنا وجذورنا العقدية والفكرية ، والأخلاقية ، نستمسك بعراها ، ونتشبث بأهدابها ، ونحوّل اعتزازنا النظرى والعاطفى إلى سلوك عملى .

إن الاعتزاز مطلوب ولا شك ، ولكنه يصبح فاقد القيمة ، عديم الجدوى ، إذا لم يتحول إلى عمل .

بل إن الاعتزاز هذا يصبح ظاهرة مَرَضيّة إذا ظل مجرد كلام يُردَّد ، وشعارات تُرفع ، وصيحات تتعالى ، لسرد الأمجاد ، وتعظيم الأجداد ، ثم لا نفعل نحن شيئاً ، ولا نخطو خطوة إلى الأمام . وكثيراً ما تمثلنا بقول الشاعر :

كن ابن مَن شئتَ واكتسب أدباً	يغنيكَ محموده عن النَّسَبِ
إن الفتى مَن يقول : هأنذا	ليس الفتى من يقول : كان أبى !

---

(١) الأنعام : ١٦١ - ١٦٣

وإنَّا نخشى أن يقول لنا قائل ، ونحن نفخر بمناقب آبائنا ومآثر أسلافنا - ما قاله شاعر آخر :

لئــن فخــرتَ بآبــاءِ ذوى حَسَــبِ   لقد صدقتَ ، ولكن بئسما ولدوا !

ماذا يغنينا أن نتحدث عن أبي بكر الصدِّيق ، وليس لنا قوته ويقينه ؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن عمر الفاروق ، وليس لنا زهده وعدله ؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن عثمان ذى النورين ، وليس لنا حياؤه وبذله ؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن عليّ المرتضى ، وليس لنا شجاعته وعلمه ؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن الصحابة الكرام ، ونحن لا نتخلق بأخلاقهم ولا نقتفى آثارهم ؟

أو نتحدث عن الأئمة المجتهدين ، ولا نجتهد كما اجتهدوا ، ولا نقول الحق كما قالوا ، ولا نتقى الله فى علمنا كما اتقَوْه ، ولا نتعلم منهم فقه الخلاف إذا اختلفوا ، وأدب الحوار والمناظرة إذا تحاوروا وتناظروا ؟!

ونتحدث عن إنجازات الحضارة الإسلامية ، ومنهجها العلمى الاستقرائى التجريبى ، وأن الأوروبيين آخذوه عنها ، واقتبسوه منها ، ولكننا لا ننجز مثل ما أنجزوا ، ولا بعض ما أنجزوا ، كأن مجرد الاختيال والفخر بحضارتنا السالفة يجعلنا نحن متحضرين بالوراثة !

إنَّا - للأسف - نكثر الكلام ، ونُقلّ العمل ، ونكثر الحزّ ولا نقطع ، وحسبنا أن يسمع الناس منا جعجعة ولا يرون منا طِحناً .

أخشى أن ينطبق علينا ما قال بعض السَلَف : « أنتم فى زمن كثير فقهاؤه ، قليل خطباؤه ، كثير معطوه ، قليل سؤّاله . العمل فيه خير من العلم . وسيأتى عليكم زمان قليل فقهاؤه ، كثير خطباؤه ، قليل معطوه ، كثير سؤّاله ، العلم فيه خير من العمل » .

ويبدو أننا نحن فى هذا الزمان الذى كثرت فيه « الخطابة » وقلّ فيه « الفقه » وكثر « السؤال » وقلّ « العطاء » وقُدِّم فيه « العلم » على « العمل » . مع أن العلم فى الإسلام إنما يُراد للعمل ، فلا معنى لعلم لا يثمر عملاً ، وعلم بلا عمل ، كشجر بلا ثمر .

والحق أن الرسوخ فى العلم لا يُتصور أن يكون بغير ثمرة . إنما الخطر فى « صورة » العلم ، أو قشور العلم ، الذى يتمثل فى الثرثرة والتفيهق دون أن يكون وراءه فقه أو بصيرة .

ما قيمة أن يحفظ المرء القرآن الكريم عن ظهر قلب ، وربما يقرؤه بالقراءات السبع أو العشر ، ولكن تفكيره ليس قرآنياً ، وخُلُقه ليس قرآنياً ، وحياته أبعد ما تكون عن القرآن ؟

ما قيمة أن يحفظ الإنسان صحيحى البخارى ومسلم ، أو الكتب الستة أو التسعة أو الأربعة عشر [1] ، ولكنه لا يتأدب بأدبها ، ولا يهتدى بهداها ، ولا ترى أثراً لها فى صلته بالله ولا علاقته بالناس ؟

هل هو إلا نسخة زادت من هذه الكتب ؟

وما يقال عن الإنسان الفرد يقال عن الجماعة والأُمة .

ما قيمة أن يكون لدى الأمة تراث حافل ، وكنوز من الثقافة والمعرفة لا تُقدَّر بملء الأرض ذهباً ، ولا تملك أُمة من الأمم عُشر معشار ما تملك من تراث ثقافى . . ومع هذا لم تُحوِّل هذا التراث إلى حاضر معيش ، يسرى فى **كيانها ، ويتغلغل فى وجودها الظاهر والباطن ، ويتفاعل مع كل ذَرَّة فيها ، فتمتصه وتهضمه وتتمثله ، ويغدو جزءاً من حياة يومها ، بعد أن كان جزءاً من أمسها .**

---

(١) المقصود بالتسعة : الستة مع إضافة موطأ مالك ومسند أحمد وسنن الدارمى . أما الأربعة عشر فيضاف إلى التسعة : مسند البزار وأبى يعلى ومعاجم الطبرانى الثلاثة .

لقد ذمَّ الله بنى إسرائيل حين لم يعملوا بما علموا ، وقال لهم : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) . وضرب لهم مثل الحمار تبشيعاً لموقفهم مما حُمِّلوه ولم يقوموا بحقه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ، بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللهِ ، وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

ومِن الناس مَن يخاف من كل كلمة فيها « عودة » أو « رجوع » – ولو كان هو « الرجوع » إلى الله عَزَّ وجَلَّ – لأن العودة فى رأيهم تعنى السير إلى الخلف ، وهم يتطلعون أبداً إلى الأمام .

ولكن العودة ، ولو كانت سيراً إلى الخلف ، تكون مطلوبة ، بل لازمة ، إذا كان السير إلى الأمام لا يؤدي إلى الهدف المنشود . ما معنى أن تسير إلى الأمام مغرِّباً ، وهدفك مشرِّق ؟ إن كل خطوة إلى الأمام تبعدك عن هدفك ، وتضيع جهدك فى غير طائل ، بل فى عكس ما تريد . والحزم كل الحزم ، والعقل كل العقل هنا : أن تقرر العودة ، وتسير إلى الخلف ، لأنك ابتداءً مشيت فى الطريق الغلط ؛ وإلا كان الأمر كما قال الشاعر :

سارت مشرِّقة وسِرتُ مُغرِّباً   شتَّان بين مُشرِّق ومُغَرِّبِ !

وإذا سار الإنسان فى طريق فوجده مسدوداً ، ألا يعود متجهاً إلى الوراء ، ليبحث عن طريق آخر ؟

وإذا وجد أمامه حفرة لا يستطيع تخطيها ، أو وجد علامة « ممنوع المرور » من هذا الاتجاه ، ألا يتراجع ويغير طريقه ؟

لماذا نكره « العودة » أو « الرجوع » إذا كان من ورائه تصحيح اتجاه ، أو تقويم خطأ ، أو تقريب من هدف ؟

---

(١) البقرة : ٤٤   (٢) الجمعة : ٥

ومثل كلمة « العودة » تأتى كلمة « الأصول » ، وأصل الأصول هو القرآن وما يبينه من السُنَّة ، وقد أصبحت كلمة « الأصول » اليوم كلمة مخوفة ، والنسبة إليها - الأصولى أو الأصولية - نسبة ترتعد منها الفرائص ، وتصطك لها الأسنان ، وتقشعر منها الأبدان . وغدت كلمة « الأصولية » مقترنة بكلمات أخرى تكوِّن اليوم « قاموس » التخويف من الإسلام وصحوته ويقظة أُمته . من هذه الكلمات الشقيقة : التطرف ، والتعصب ، والسَلَفية ، والإرهاب .

وينبغي - نحن دعاة الوسطية الإسلامية - ألا ترهبنا هذه الكلمات التى يتخذون منها سيوفاً يسلّونها أمام أعيننا ، ملوّحين بها ، حتى نفرّ مذعورين ، أو نهرب مختفين ، وندع المجال لهم وحدهم ليعربدوا ويفسدوا ، كما قال الشاعر :

خلا لكِ الجو فبيضى واصفرى ونقّرى ما شئتِ أن تنقّرى !

ينبغى أن يكون موقفنا ما عبَّر عنه الإمام الشافعى رضى الله عنه قديماً ، حين دافع عن آل البيت ، فاتُهِم بالرفض - أى التشيع - فقال :

إن كان رفضاً حبُّ آل محمد فليشهدِ الثقلانِ أنِّىَ رافض !

ونحن نقول : إن كانت العودة إلى أصول الإسلام ، والدعوة إلى تطبيق شريعته ، والاحتكام إلى كتابه وسُنَّته ، والمناداة بوحدة أُمته ، أصولية عندكم ، فنحن أول الأصوليين ، وأنا أقول هنا : اللّهم أحيينى أُصولياً ، وأمتنى أُصولياً ، واحشرنى فى زمرة الأُصوليين !

إن أول ما ندعو إليه تجاه هذه الكلمات الشائعة وأمثالها هو : تحديد المفاهيم ، حتى لا تُتْرَك هذه الكلمات والمصطلحات هلامية قابلة لأكثر من تفسير ، وأكثر من مدلول ، وكل مَن شاء يفسرها بما شاء ، وفقاً لهواه ، أو تبعاً لمذهبه ، وبهذا تضطرب المعايير ، ويخبط الناس خبط عشواء .

* *

٤ - إحياء السَلَفية المجددة :

ومما يكمل معنى العودة إلى الأصول والجذور : الحرص على التشبع بروح السَلَف الصالح لهذه الأمة . وعلى رأس السَلَف الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وإحياء منهجهم فى فقه أحكام الله فى شرعه ، وسننه فى خلقه .

وأؤكد هنا أن الذى نريده : منهج السَلَف الكلى ، وليس أقوال السَلَف الجزئية ، وفرق كبير بين الأمرين .

منهج السَلَف يعنى : طريقتهم الكلية فى فهم الدين والعمل به ، والعمل له .

ومنهجهم - كما يبدو من استقراء أحوالهم وأقوالهم وأعمالهم - هو النظر إلى جوهر الدين لا إلى شكله ، وإلى مقاصد الشريعة لا إلى حرفيتها ، وإلى روح العمل لا إلى مادته ، وتغليب اليُسر على العُسر ، والتخفيف على الإعنات ، كما يبدو ذلك فى مسلك الخلفاء الراشدين المهديين ، الذين أُمِرنا أن نتبع سُنَّتهم .

أما الأقوال الجزئية ، فهذه تتأثر بظروف الزمان والمكان والعوائد والأحوال . وهى تتغير بتغير موجباتها .

ولهذا قد ندع بعض أقوال السَلَف ، لأنها كانت ملائمة لهم ، ولم تكن ملائمة لنا ، مثل الجهاد بالخيل ، وإن ورد ذكرها فى القرآن العزيز والأحاديث الصحاح ؛ فقد غدت خيل العصر المصفحات والدبابات والمجنزرات .

ومثل ذلك إذا أفتوا أو قضوا وفق معارف عصرهم ، مثل أقوالهم فى مدة الحَمْل ، التى وصلها بعضهم إلى أربع سنوات أو خمس أو سبع !!

إن السَلَفية الحقة لا تعنى أن نسير سير السَلَف فى الشكليات والجزئيات ، المتطورة بتطور العادات .

لا يعنى اتباع منهج السَلَف أن نجلس على الأرض كما كانوا يجلسون ، وأن

نأكل باليد كما كانوا يأكلون ، وأن نركب الجمل فى الأسفار كما كانوا يركبون ، وأن نبنى دورنا باللَّبِن كما كانوا يبنون .

وما أظن أحداً عاقلاً يقول بمثل هذا إلا من باب التشبه بالرجال ، وتوطين النفس على الزهد فى الدنيا . ولا بأس بهذا ، لتربية النفس ، والسمو بالروح ، ابتغاء رضوان الله تعالى .

وربما وُجِد فى محيط الصحوة الإسلامية اليوم مَن يتشدد فى تقصير الثوب ، أو إطالة اللحية ، أو لبس النقاب ، وذلك مهمّ فى هذه المرحلة ؛ لأنه من مظاهر التميز ، ودلائل التحدى ، وعلامات التحرر من رواسب عهد الاستعمار ، وما خلف من أفكار ومشاعر وأنماط من السلوك .

بَيْد أن الخطأ أو الخطر يتمثل فى التشديد والإلحاح على هذه المظاهر ، واعتبارها هى لُبَاب الدين ، وتأثيم مَن يرى رأياً آخر فيها ، وتصنيف الناس بين الولاء والبراء على أساسها .

إن السَلَفية الحقة - كما بيَّنتُ فى بعض ما كتبت [1] - لا تكون إلا مجددة ، كما أن التجديد الحق لا يكون إلا سَلَفياً . وهذا ما أثبته التاريخ .

فابن تيمية ومدرسته كانوا سَلَفيين ، وكانوا مُجدِّدين حقّاً ، وأفكارهم التجديدية لا يجحد بها إلا مكابر .

والسيد رشيد رضا ومدرسته فى عصرنا سَلَفيون مجدِّدون ، بلا جدال .

اتباع منهج السَلَف يوجب علينا أن نجتهد لعصرنا كما اجتهدوا لعصرهم ، وأن نفكّر بعقولنا لتنظيم حياتنا كما فكّروا هم بعقولهم ، وأن نراعى زماننا وبيئتنا وأعرافنا وأحوال عيشنا ، إذا أفتينا أو قضينا أو بحثنا ، أو تعاملنا مع

---

(١) كتابى « الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى » تحت عنوان « الجمع بين السلفية والتجديد » .

أنفسنا أو مع الآخرين ، كما راعوا هم كل ذلك ، وأن نقتبس من غيرنا ما ينفعنا كما اقتبسوا ، وأن نبتكر فى أمر دنيانا كما ابتكروا .

إن عمر بن الخطاب غيَّر رأيه فى بعض المسائل ، وقضى فيها فى عام برأى ، وفى العام التالى برأى آخر ، ولم ير فى ذلك حَرَجاً ، وقال : « ذلك على ما علمنا ، وهذا على ما نعلم » .

ولما روجع فى مسألة من مسائل الميراث تتعلق بالإخوة الأشقاء والإخوة لأم ، وقال له الأشقاء الذين حُرِموا حسب القواعد : هب أن أبانا كان حماراً - أو حجراً فى اليمّ - ألسنا من أم واحدة ؟! لم يملك إلا النزول على رأيهم ، وسنّ بذلك سُنَّة الاستحسان ، وهو الخروج من صرامة القواعد إلى مرونة اعتبار المصالح ورعاية المقاصد .

وعمر بن عبد العزيز قال : تحدث للناس أقضية - أحكام وعقوبات - بقدر ما أحدثوا من فجور !

إن السَلَفية ظُلِمت من خصومها وكثير من أنصارها ، على السواء .

فخصومها صوّروها جموداً وتزمّتاً وإعناتاً ، ووقوفاً عند ظواهر النصوص ، وأقوال الأقدمين ، وخصوصاً ابن تيمية ومدرسته الحنبلية . فالسَلَفية عندهم لحية طويلة ، وثوب قصير ، ونقاب على وجه المرأة ، وحرب على أهل التأويل والمخالفين بصورة عامة .

وقد ساعدهم على تثبيت هذه الصورة بعض دعاة السَلَفية الذين اهتموا بالشكل أكثر من الجوهر ، وبالجزئيات أكثر من الكليات ، وبالمختلَف فيه أكثر من المتفَق عليه ، واعتبروا رأيهم هو الصواب الذى لا يحتمل الخطأ ، ورأى مَن خالفهم هو الخطأ الذى لا يحتمل الصواب .

إنى معجب بالمدرسة السَلَفية التجديدية التى تتمثل فى شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم ، ولكن أخالفهما فى بعض القضايا . وأنا

بهذا أطبق – فى واقع الأمر – منهجهما ، فقد دَعَوَا إلى الاجتهاد لا التقليد ، ولو قلَّدتهما لخالفتُ منهجهما .

* *

٥ – الانتفاع الواعى بتراثنا :

ومن دلائل الأصالة : أن نجتهد فى الانتفاع بتراثنا الغنى ، والغوص فى خضمه الزاخر ، لاستخراج لآلئه وجواهره ، فى الدين واللغة والأدب والعلم والفن ، وسائر المواريث الثقافية البنَّاءة ، التى خلفها الآباء للأبناء ، والأجداد للأحفاد .

ولا يُتصور من أُمة عريقة فى الحضارة والثقافة أن تهمل تراثها وتاريخها الأدبى والثقافى ، وتبدأ من الصفر ، أو من التسول لدى الغير ؛ فهذا لا يقبله لنفسه فرد ولا جماعة ؛ لأن تسوّل الأغنياء رذيلة تنكرها الأخلاق ، وجريمة يعاقب عليها القانون .

لكن كلمة « التراث » مثل كلمات أخرى كثيرة فى هذا المجال ، كثيراً ما أُسيء فهمها ، ووضُعِت فى غير موضعها . حيث لم يتحدد المراد منها تحديداً يزيل اللبس والغشاوة عنها .

ذلك أن التراث يحتوى الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، والسمين والغث ، كما لا يخفى على كل مَن درس شيئاً من هذا التراث . فما المراد بالانتفاع به هنا ؟

لقد حفل التراث بالطيب من القول ، والجيد من العلم ، كما امتلأ بالخبيث والردىء .

حتى الكتاب الواحد ، تجد فيه حقائق سبقت الزمن ، وأباطيل كأباطيل العجائز .

وتجد العالِم الواحد يحلّق كثيراً فيبدع ، ويهبط أحياناً فيخرّف ، أو على الأقل يقبل الخرافة ويصدقها .

كنت أقرأ فى تاريخ الطبرى ، وهو إمام جليل فى التفسير والحديث والفقه والقراءات وغيرها ، فأجده يقبل روايات يرفضها العقل والمنطق ، ولكنه يعتذر إلينا بأنه أدى إلى مَن بعده ما أداه إليه مَنْ قبله ، فهو ناقل وليس بمستنبط ، وحسبه أنه أسند كل رواية إلى قائلها ، وإن لم يتعرض للسند بتعديل ولا تجريح ، كما فعل فى كتب الفقه والحديث .

وقد رأيته يرجح أن زمان الدنيا منذ خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة سبعة آلاف سنة ، وروى أثراً فى ذلك عن ابن عباس ، وأيَّد ذلك بآثار وأحاديث أخرى .

وهذا وأمثاله إنما هو من الإسرائيليات التى أشاعها أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وربما نقله عنهم ابن عباس إن صح ذلك عنه ، وما أظنه صحيحاً .

ولا يكاد يسلم مفسر أو محدِّث أو فقيه أو متكلم أو فيلسوف ، من أقوال وآراء يراها بعقله أو ينقلها عن غيره ، أثبت العلم ومقرراته اليوم أنها من جملة الأساطير .

ومن ذلك كلام الفلاسفة الكبار عن العناصر الأربعة ، أو عن الأفلاك ، أو عن شكل الكون ، ومركز الأرض منه ، أو غير ذلك ، مما أبطلته علوم العصر وثباتها الهائلة ، حتى غدا تلميذ المدرسة يعرف عن الأرض والأفلاك أكثر وأصح مما كان يعرفه الفلاسفة العظام المشاهير .

وفى التراث أشياء لم يثبت خطؤها ، ولكن لم تثبت جدواها ، أو لم تعد الحاجة إليها باقية ، كما كانت من قبل ؛ وذلك مثل بعض مباحث علم الكلام المتفلسف ، كالمواقف للإيجى ، وشرحه للجرجانى ، وشرح المقاصد للتفتازانى ، والطوالع للبيضاوى وأمثالها . فهذه المباحث العميقة المجهدة ،

لم تعد الحاجة إليها قائمة ، ولم تعد تخاطب الناس بلسان العصر ، وبعض مباحثها أمسى غير ذى موضوع ، وبعضها تجاوزه العلم أو أبطله . وينبغى وضع علم كلام آخر يُعبِّر عن عصرنا ، ويواجه تياراته ، ويحل مشكلاته ، يكون عمدته القرآن والعلم الحديث .

وفى علم الفقه مباحث مستفيضة عن العتق وما يتصل به من أبواب المدبر وأم الولد والمكاتب وغيرها ، مما لم تعد الحاجة إليه قائمة أيضاً . وفيه أقوال تحمل طابع زمانها ومكانها ، نجمت فى عصور التقليد ، لا تلزمنا اليوم فى شىء ، إلا من باب الدراسة التاريخية .

وفى علم التصوف شطحات ونتوءات فى الفكر والتصور - كالحلول والاتحاد - تناقض صفاء التوحيد الإسلامى ، وأخرى فى السلوك والعمل - كالمبالغة فى الزهد والتوكل - تنافى وسطية الخُلُق الإسلامى .

وفى كتب الأدب والشعر أشياء تجاوزت الدين والخُلُق والعُرْف والذوق ، كالغزل فى الذكور ، والحكايات الهابطة .

وكل هذا تراث ، فهل هذا هو المقصود من التراث الذى أقيمت مراكز ومؤسسات وإدارات لإحيائه ونشره وتقريبه للناس ؟

وإذا قلنا : الانتفاع بالتراث ، فهل يعنى هذا أن نقبله كله بحقه وباطله ، وعلمه وجهله ؟!

إننا لسنا مع الذين يضفون القدسية أو العصمة على كل ما مضى ، ولا مع خصومهم الذين ينأون بجانبهم عن كل موروث ، لا لشىء إلا لأنه قديم ، ولكن لا بد لنا من التخير والانتقاء . وخصوصاً فى مجال التربية والتثقيف ، أو مجال الدعوة والتوجيه ، أو مجال الحكم والتشريع . ولهذا أشرنا من أول الأمر : أن المطلوب هو الانتفاع الواعى بالتراث ، لأن الوعى هو الذى يميز بين ما يصلح وما لا يصلح .

* * *

● الإسلام فوق التراث :

وأود أن أنبه هنا على حقيقة هامة يغفلها بعض المعاصرين من الكتّاب العلمانيين ، أو يفهمونها على غير وجهها ، وهى : الخلط بين الإسلام والتراث ، خلطاً - أحسبه مقصوداً - بحيث يوهم أن أحدهما يعنى الآخر . وهذا ليس بصحيح ؛ فالإسلام ليس مجرد تراث يؤخذ منه ويترك ، شأنه شأن شعر امرىء القيس ، أو أبى نواس ، أو كتاب الأغانى أو ألف ليلة وليلة .

إن اعتبار الإسلام العظيم من جملة التراث تهوين من شأنه ، وحطّ من قدره ، وتضليل للقارىء أو السامع عن حقيقته . والواجب أن يعبّر عن الإسلام باسمه الصريح ، كما ارتضاه الله لنا : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (١) .

إن التراث - كما بيّنا - كلمة واسعة ، تشمل الجدّ والهزل ، والصواب والخطأ ، والحقيقة والخرافة ، والصدق والكذب ، والعلم والجهل ، والروائع والهوابط ، من أصول الشافعى وتصوّف الغزالى ، إلى مجون امرىء القيس وخمريّات أبى نواس ، وشعر الغزل فى الذكور ، والحكايات المرذولة ، والإسرائيليّات المردودة ، والأحاديث الموضوعة ، والآراء الفاسدة . فأين هذا من وحى الله تعالى الذى يتمثّل فى الإسلام ؟!

وإذا كان بعضنا يصرّ على أن يدخل الإسلام فى التراث ، فإن أول واجب هنا هو التفريق بين المستوى الإلٰهى والمستوى البَشرى من التراث ، والأول هو المعصوم الذى دلّ عليه محكم القرآن والسُّنَّة . وهو الذى نطلق عليه : الإسلام ؛ وهو الذى يُتلقى بالسمع والطاعة : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢) .

---

(١) المائدة : ٣ (٢) الأحزاب : ٣٦

أما الثانى فهو صنعة العقل البَشرى فى مجالات العلم والفلسفة والأدب والفن ، بفروعها المختلفة ، وألوانها المتنوعة ، وفيها ما فى كل عمل إنسانى من قصور البَشر ، وأهواء البَشر ، وأوهام البَشر ، وتأثرهم بالزمان والمكان ، وشتَّى الظروف والمؤثرات المادية والمعنوية .

ويدخل فى هذا عمل العقل الإسلامى فى فهم الجانب المعصوم مما قد يسمى التراث ؛ وهو ما يشمل علوم التفسير ، وعلوم الحديث ، والفقه وأصوله ، والكلام ، والتصوف ، وهى علوم تتسع مسائلها - أو أكثرها - للأخذ والرد ، والترجيح والتضعيف .

ولا غرو أن تعددت المدارس والمذاهب : فى التفسير ما بين الرواية والدراية ، وفى الفقه ما بين أهل الرأى وأهل الأثر ، ومدرسة الظواهر ومدرسة المقاصد . وما بين طريقة المتكلمين ، وطريقة الحنفية فى أصول الفقه ، وطريقة مَن يجمع بينهما . وفى الكلام ما بين المقدّمين للنقل على العقل ، وخصومهم ، وفى التصوف ما بين مدرسة التصوف التربوى الأخلاقى ، ومدرسة النظريات الحلولية والاتحادية .

إن الإسلام - المتمثل فى محكمات القرآن والسُنَّة - فوق التراث ، بل هو الحكَم على التراث بالقبول أو الرد ، فهو المعيار الذى لا يخطىء ، والهادى الذى لا يضل .

ومع هذا المعيار النقلى معيار آخر عقلى ، تُرَد إليه الأمور بجوار الوحى ، وهو « الميزان » المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **اللهُ الَّذى أَنزَلَ الْكتَابَ بالْحَقِّ وَالْميزَانَ** ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكتَابَ وَالْميزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقسْطِ** ﴾ (٢) .

---

(١) الشورى : ١٧ (٢) الحديد : ٢٥

وبهاتين الآيتين استدل الفقهاء الذين يحتكمون إلى القياس ، مبينين أن النص الصريح لا يناقض القياس الصحيح ، وبعبارة أخرى : لا تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول .

يقول الإمام ابن القيم : « إن الله أنزل الكتاب والميزان ، فكلاهما فى الإنزال أخوان ، وفى معرفة الأحكام شقيقان ؛ فلا تتناقض دلالة النصوص الصحيحة ، ولا دلالة الأقيسة الصحيحة ، بل كلها تتصادق متناصرة ، يصدق بعضها بعضاً ، ويشهد بعضها لبعض » (١) .

* *

● **قراءة مستبصرة للتراث :**

وبهذا نستطيع أن نقرأ التراث قراءة مستبصرة ، نقرؤه ونحن نقف على أرض صُلْبة ، نقرؤه ومعنا هاديان من عند الله : هادٍ من خارجنا ، وهو الوحى ، وهادٍ من داخلنا ، وهو العقل .

نقرأ شعر الجاهليين إن شئنا ، فنرفض منه نَضْح الوثنية ، ومجون الجاهلية ، وحميتها ، ونأخذ بعد ذلك ما وسعنا الأخذ ، من روائع التصوير ، وبدائع التعبير ، عن النفس والطبيعة والحياة ، ونقتبس غوالى الحكم ، التى سارت مسير الامثال ، كقول طرفة فى معلقته :

إذا القوم قالوا : مَن فتىً ؟ خلتُ أننى   عُنيتُ ، فلم أكسل ، ولم أتبلدِ

---

(١) إعلام الموقعين : ١/ ٣٦٩ ، بتحقيق عبد الرحمن الوكيل . نشر دار الكتب الحديثة .

وقوله :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار مَن لم تزوّد

ونقرأ شعر الإسلاميين ، فنجد الكثير الطيب مما ينفع الناس ويمكث فى الأرض ، ونجد القليل الضار ، من المديح المسرف والهجاء المقذع ، والعصبية القَبَلية ، والمجون المكشوف ، والشك المتحيّر ، وما أشبه ذلك ، فنعرض عنه .

نقرأ أبا العلاء ، ونستمتع بروائع شعره ، وهو يغوص فى أعماق النفوس ، وأغوار الحياة والمجتمع ، وينقدها ويسخر منها ، كقوله :

ولما رأيتُ الجهل فى الناس فاشيـاً ... تجاهلـــتُ حتـى ظُنَّ أنـى جاهــلُ

فوا عجبا كم يَدَّعى الفضلَ ناقصٌ ... ووأسفا كم يدَّعــى النقـصَ فاضـلُ !

ولكنَّا لا نأخذ نظرته التشاؤمية فى مثل قوله :

هـــــذا جنـــــاه أبـــــى علــــ ... ىّ ومــا جنيــتُ علـى أحــدٌ !

وقوله :

وإذا أردتـــم للبنيـــن سعـــــادةً ... فالخيرُ أجمعُ تركُهُمْ فى الأظهُرِ !

يعنى : قطع النسل وعدم الإنجاب !

نقرأ ابن سينا ونقتبس منه ، فليسوفاً وعالماً وطبيباً ، ولكنّا ننقد ما حاد فيه عن منهج القرآن والسنَّة حياداً بواحاً عندنا فيه من الله برهان ، فى « إشاراته وتنبيهاته » أو فى « شفائه » أو فى « رسائله » .

بل نقرأ حُجَّة الإسلام الغزالى وننهل من تراثه الرحب ، ونحْذَرُ من بعض ما تضمنت كتبه من غلو الصوفية ، أو من معارف أثبت علم العصر بطلانها ، أو ما استند إليه من الأحاديث الواهية والموضوعة والتى لا سند لها .

ونقرأ شيخ الإسلام ابن تيمية ، وما خلف من كتب كبيرة ، ورسائل

متوسطة وصغيرة ، وفتاوى متنوعة ، ومباحث مستفيضة فى الأصول والفروع ، والمعقول والمنقول ، فنغترف منها ، وننتفع بها ، ولكنَّا نخالفه فيما لا نقتنع به فى العقليات والنقليات ، وفى بعض ما بالغ فيه ، كإنكار المجاز فى القرآن واللغة ، وننقده كما نقد هو مَن قبله ، ونقول ما قال تلميذه الذهبى : شيخ الإسلام حبيبٌ إلينا ، ولكن الحق أحبُّ إلينا منه .

ونفعل ذلك مع النووى وابن القيم وابن حجر وابن الهمام وابن الوزير والقرافى والشاطبى وابن خلدون والدهلوى والشوكانى وغيرهم . نستفيد منهم ، ولكن نفكر كما فكَّروا ، ونجتهد كما اجتهدوا .

نقرأ التفسير ، ونحذر من الإسرائيليات ، والأقوال الفاسدات .

ونقرأ الحديث ، ونحذر من الموضوعات والواهيات .

ونقرأ التصوف ، ونحذر من الشطحات والتطرفات .

ونقرأ علم الكلام ، ونحذر من الجدليات والسفسطات .

ونقرأ علم الفقه ، ونحذر من الشكليات والتعصبات .

نقرأ هذه العلوم كلها من مصادرها الأصيلة ، ثم من مراجعها الشارحة ، لنستلهمها ونستهدى بها ، ونستضىء من مشكاتها ، ونأخذ منها ما هو أرجح دليلاً ، وأهدى سبيلاً ، أى لتكون مناراً هادياً يسدد مسيرتنا ، لا قيداً ثقيلاً يغل حركتنا .

وإذا كان هذا موقفنا من التراث ذى الصبغة الدينية وعلومه المأثورة ، وهو موقف التخير والانتقاء ، بعد التحصيل والارتواء ، فمن باب أولى أن يكون هذا موقفنا من سائر معارف التراث العلمى والأدبى والفنى .

وينبغى لنا أن ننهل من هذا التراث بكل معارفه ، وكل ألوانه ، وكل مدارسه ، وكل مذاهبه ؛ لا أعنى الناشئة الصغار ، الذين ينبغى أن يُحْمَوا من السباحة فى الأعماق خشية أن يغرقوا ، وإنما أعنى أهل العلم وطُلاَّب التبحر

والتعمق فيه . كما حكى الإمام الغزالى عن نفسه فى كتابه « المنقذ من الضلال » ، وكما حكى الإمام أبو إسحاق الشاطبى عن نفسه فى كتابه « الاعتصام » (١) .

لقد كان حَبْر الأُمة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يحفظ الكثير الكثير من شِعر الجاهلية ، ويحتج به فى تفسير القرآن ، كما رووا أنه كان يحفظ رائية ابن أبى ربيعة ، على ما فيها من مجانة مرذولة .

وكانت عائشة رضى الله عنها ، تحفظ الكثير من الشِعر الجاهلى ، وتستشهد به ، وتروى من قصص الجاهلية ، وقد روى البخارى وغيره عنها حديث الزوجات الاثنتى عشرة ، وما وصفت به كل واحدة زوجها ، وهو المعروف بحديث « أم زرع » ، وقد استمع الرسول ﷺ إليها ، وهى تحكى هذه القصص ، ولم ينكر عليها ، أو يضق بذلك صدراً .

إننا إذا تحصّنا بالكتاب والميزان ، خضنا لُجَج التراث ، دون أن نخشى الغرق أو الضياع : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

* *

• قراءات متحيزة أو موجَّهة للتراث :

ومن المتحدثين عن التراث : مَن يقرؤه ، أو يدعو إلى قراءته قراءة لا توصف إلا بأنها متحيّزة : تنحاز لبعض المدارس دون بعض ، ولبعض الاتجاهات دون بعض ، ولبعض الشخصيات دون بعض ؛ فهم يأخذون من التراث ويدعون ، ويحذفون منه ويُبقون ، وفق أهوائهم وميولهم الخاصة . وهم يفسرون

---

(١) انظر كلام الغزالى فى كتابنا « الغزالى بين مادحيه وناقديه » ص ٢٦ ، ٢٧ ، وكلام الشاطبى فى بحثنا « التربية عند الشاطبى » المنشور فى « حولية كلية الشريعة » بجامعة قطر : العدد التاسع .

(٢) آل عمران . ١٠١

ما يأخذونه ، كما يحلو لهم ، اتباعاً للهوى ، لا احتكاماً إلى كتاب أو ميزان مما أنزل الله : ﴿ اللهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ (١) .

مِن هؤلاء مَن ينحاز إلى « المدرسة الفلسفية » وخصوصاً « المدرسة المشّائية » الإسلامية ، التى جعلت أكبر همها التوفيق بين الفلسفة والدين ، ولكنها اعتبرت الفلسفة أصلاً ، والدين تبعاً ؛ فإذا تعارضا أُوِّلَ الدين ليتفق مع الفلسفة . ويمثل هؤلاء الكندى والفارابى وابن سينا ومَن سار على دربهم .

ومنهم مَن ينحاز إلى « المدرسة الاعتزالية » ، ويعتبر المعتزلة هم « المفكرين الأحرار » فى الإسلام . ويذرف الدموع السخينة على هزيمتهم الفكرية أمام أهل السُّنَّة (٢) ، بعد أن كانت لهم الدولة خلال عدة عقود . وحديث هؤلاء عن المعتزلة يوهم أنهم جماعة « عقلانية » محضة ، لا تذعن لنصوص الدين ، ولا تخضع لأحكام الشرع . وهو تصوير غير صحيح لموقف القوم ، وخصوصاً فى مجال الفقه والأحكام العملية ، التى كثيراً ما تبعوا فيها المذهب الحنفى .

ومنهم مَن ينحاز إلى شخصيات معروفة دون غيرها ، مثل ابن رشد ، وابن حزم ، وابن عربى ، وابن خلدون . وكلامهم عن هؤلاء وأمثالهم يصوِّرهم بصورة « العقلانيين » الخلصاء ، الذين يرفضون النصوص إذا خالفت مقرراتهم العقلية .

وهذه قراءة متحيزة لهؤلاء الأعلام ، فكتبهم تدل بوضوح على أنهم -

---

(١) الشورى : ١٧

(٢) انظر تعليقنا على ذلك فى كتابنا « المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسُّنَّة » فصل « تقديم العقل على الشرع » ص ٣٣١ - ٣٥٤ ، نشر مكتبة وهبة ، القاهرة .

ككل المسلمين – لا يملكون أمام محكمات النصوص ، إلا أن يقولوا : سمعنا وأطعنا .

فابن رشد وابن خلدون كلاهما قاضٍ شرعى وفقيه مالكى ، وابن رشد هو صاحب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » فى الفقه المقارن ، الذى يتجسد فيه احترام المصادر والأدلة الشرعية كلها ، من الكتاب والسُنَّة والإجماع والقياس .

وابن حزم وابن عربى كلاهما فقيه ظاهرى ، يأخذ بظواهر النصوص وحرفيتها فى مجال الفقه واستنباط الأحكام ، وإن كان على ابن عربى اعتراضات جمَّة فى تصوفه الفلسفى .

ولكن هؤلاء العصريين يستنطقون تلك العقول الكبيرة - على اختلاف اهتماماتها وتخصصها - بما يحبون هم أن تنطق به ، لا بما نطقت به بالفعل ، فهم يريدونها مترجمة عنهم ، معبِّرة عن فكرهم ، لا عن ذاتها وفكرها الخاص .

هؤلاء يستلهمون التراث الماضى ما يبررون به الواقع الحاضر . وهو ما لاحظه باحث جاد – د . فهمى جدعان – يرى أن عمليه « الاستلهام » هذه ليست إلا عملية تسويغ لقيم الحاضر ، بإسقاط غطاء تراثى عليها ، وأن الذى يحدث عملياً أن الحاضر هو الذى يفرض قيمه ، ويلزم بها [1] .

ومثل هؤلاء مَن يدعو إلى « إعادة قراءة التراث » وفق مناهج معاصرة ، ارتضاها أصحابها ، تبعاً للمدارس التى ينتمون إليها .

وهذا التوجه شائع عند المثقفين الذين مارسوا خبرة ما بمناهج العلوم الإنسانية الحديثة ، وبالفلسفات المعاصرة الغربية ، فكل واحد من هؤلاء يقرأ التراث وفقاً لمنهجه المحدد ، ويفسره ويوجهه تبعاً لإطاره المرجعى ، فهذا

---

(١) انظر : نظرية التراث للدكتور فهمى جدعان – ص ٢٦ ، طبع دار الشروق ، عمان .

يقرؤه قراءة عقلانية ، وثانٍ قراءة لسانية ، وثالث قراءة مادية ، ورابع قراءة براجماتية ، وقراءات آخرى معرفية ووظيفية وبنيوية ، إلى آخر التصنيفات التى يتعالم بها أسارى الفكر الغربى بمختلف تيَّاراته . والتى تحاول « أدلجة » التراث ، وتوظيفه لخدمة أفكار مدرسة معنية ، وتوجيهه توجيهاً قبْليّاً واضحاً ، فهى ليست قراءة للفهم ، وإنما للفعل والتأثير ؛ بل « للتثوير » عند بعضهم .

والحقيقة - كما يقول الدكتور جدعان - : أن هذه « الأدلجة » لم تكن تعنى فى نهاية التحليل إلا شيئاً واحداً ، هو : أن الحاضر عاجز - بإمكاناته وقدراته الكامنة والصريحة - عن إحداث التغيير المنشود . وأن التراث الذى يشد الناس إليه ، هو الذى يملك القوة السحرية على التغيير ، وذلك - بطبيعة الحال - بعد توجيه قراءته الوجهة التى تخدم الأهداف المنصوبة [١] .

لقد رأينا باحثاً مثل الدكتور محمد أركون ينصب من نفسه حكَماً على التراث ، يحكم فيه كحكم نمروذ « يحيى ويميت » فهو يُبقى منه ما يريد ، ويحذف منه ما يريد ، تحت ستار ادعاء عريض ، هو : النقد أو التجديد . وهو يقول : « لا بد من وضع التراث - كله - موضع البحث والنقد والتقويم فى ضوء الاكتشافات الحديثة » . ولهذا نراه لا يكتفى بأن ينقد صحيحى البخارى ومسلم ، بل يريد أن ينقد مصحف عثمان ! أى المصحف الذى لا يعرف المسلمون غيره !

هكذا قال الدكتور أركون فى ورقته التى قدَّمها إلى ندوة « التراث وتحديات العصر » عن « التراث : محتواه وهويته - إيجابياته وسلبياته » [٢] ، والتى

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) انظر الكتاب الصادر عن ندوة « التراث وتحديات العصر » ص ١١٥ وما بعدها .

كال فيها الإطراء للمستشرقين ، وغمز كل العلماء والباحثين المسلمين ، من المستقدمين والمستأخرين ، حتى الأفغانى ومحمد عبده ، اللذين يتهمهما بعض الناس بالإسراف فى التجديد .

وبحق ما عقب به الدكتور جلال أحمد أمين حين قال : إننى أتعجب أشد العجب من أن بعض المعلِّقين وصف ورقة الدكتور أركون بأنها تمثل مساهمة فى اتجاه تجديد التراث ، فإذا كان هذا تجديداً للتراث ، فكيف يا تُرَى يكون قتله أو تحقيره ؟! [1] .

* * *

(١) المرجع السابق ص ٢٠٣ ، وانظر : تعليقات المناقشين من ص ٢٠٠ - ٢٠٥

الفصل الثالث

لكى نكون معاصرين حقّاً

- ماذا تعنى المعاصرة ؟
- ضرورة معرفة العصر .
- العلم والتكنولوچيا .
- النظرة المستقبلية .
- أصناف الناس أمام الماضى والمستقبل .
- دعوى التصادم بين التفكير المستقبلى والتفكير الدينى .
- التعلق بالنموذج النبوى والصحابى .
- حاجة البَشر إلى نموذج .

* * *

ماذا تعنى المعاصرة ؟

يراد بالمعاصرة : أن يعيش الإنسان فى عصره وزمانه ، فى أفكاره وقيمه وسلوكياته ، فى انتصاراته وهزائمه ، فى معمعة أحداثه ، ومع أهله الأحياء المتحركين ، يفكر كما يفكرون ، ويعمل كما يعملون . لا يعيش فى عصر مضى بما يحمل من تصورات وعقائد ، ومن قيم ومفاهيم ، ومن أخلاق وتقاليد ، ومن شعائر وشرائع ، قد تكون صالحة للعصر وقد لا تكون .

جوهر المعاصرة - إذن - هو معايشة الأحياء لا الأموات ، والواقع الماثل لا الماضى الزائل . ولهذا مظاهره ودلائله ، التى تقتضيها المعاصرة .

وهذا الإجمال له تفصيل ، نبين عنه فى هذا الفصل .

١ - ضرورة معرفة العصر :

أول دلائل « المعاصرة » أو مقوِّماتها : أن نعرف « العصر » الذى نعيش فيه معرفة دقيقة وصادقة ، فإن الجهل بالعصر ، أو معرفته على غير حقيقته يفضى إلى عواقب وخيمة ، كالطبيب الذى يصف دواءً جيداً ، ولكنه قد يقتل مريضه أو يضاعف عليه سقمه ، إذ لم « يُشخِّص » داءه تشخيصاً دقيقاً ، أى لم يعرفه كما ينبغى .

إن بعض الكُتَّاب اللامعين فى عالَمنا العربى والإسلامى ، يتحدثون عن التفكير المادى وكأنهم فى القرن الثامن عشر ، مغفلاً الاتجاهات الإيمانية التى برزت لدى الكثيرين من علماء ومفكرى القرن العشرين [(١)] .

---

(١) انظر فى ذلك كتاب الأستاذ العقاد « عقائد المفكرين فى القرن العشرين » ، وكتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » بأقلام ثلاثين عالماً عصرياً ، كتب كل منهم مقالاً : كيف اهتدى إلى الله عن طريق تخصصه ، ترجمة الدكتور الدمرداش سرحان ، ونشرته دار إحياء الكتب العربية ، بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين . وانظر كذلك : =

ومنهم مَن لا يزال يتشبث بالماركسية وقد سقطت قلاعها العملية ، وحتمياتها النظرية ، فى مسقط رأسها ، وديار مجدها .

ومنهم مَن لا يبرح ينادى بالقومية ، وقد ذهبت ريحها منذ زمن بعيد ، وبات الناس يبحثون عن تكتلات أكبر وأرحب ، تحقق مصالحهم ، وتدرأ أخطار المنافسين عنهم .

ومنهم . . ومنهم . .

ولقد قال المستشار طارق البشرى فى حديثه عن « الإسلام والعصر » : إن المشكلة ليست فى جهلنا بالإسلام ، بل المشكلة فى جهلنا بالعصر !

وهو يوجه كلامه إلى العلمانيين ودعاة التغريب والتحديث ، فهو يعيب عليهم عدم معرفتهم بالعصر الذى يتباهون بالانتماء إليه ، أكثر مما يعيب عليهم عدم معرفتهم بالإسلام ، فهذا مفروغ منه ، وهم لا يدّعونه لأنفسهم .

وإذا كان من دعاة التحديث مَن يجهل العصر ، فإن فى دعاة الإسلام مَن هو أكثر جهلاً به ، لأنه يعيش فى الماضى وحده ، ويسكن فى صومعة التراث ، وقد أغلق عليه بابها ، فلا يكاد يرى أو يسمع أو يحسّ شيئاً مما حوله . ويا ليته يعيش فى عصور التألق والازدهار . بل كثيراً ما يعيش فى عصور التخلف والتراجع . فهو يفكر بعقولهم ، ويتحدث بلغتهم ، ويحيا فى مشكلاتهم ، ويجيب عن أسئلتهم ؛ فهو حى يعايش الأموات ، أكثر مما يعايش الأحياء .

وربما اعتبر بعضهم موقفه هذا الشخصى معبِّراً عن موقف الإسلام ، وهذا هو الخطأ الشنيع ، سواء من الشخص أو ممن يحلل موقفه .

= كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان » تأليف « أ . كريسى موريسون » رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ، ترجمة د . محمود صالح الفلكى ، وتقديم د . أحمد زكى ، والشيخ أحمد حسن الباقورى .

فالإسلام ينكر بشدة علي الذين يجمدون على الماضى وحده ، متبعين للآباء والأجداد ، وإن كانوا على باطل ، ومن عباراته القارعة لهم : ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [١] ، ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [٢] ، ﴿ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ [٣] .

وينكر الإسلام على الذين يجترّون الذكريات الأليمة ، ويعيشون فى دوّامتها الحزينة ، فتنغص عليهم حياتهم ، دون أن يصنعوا شيئاً لمستقبلهم . وفى ذلك يقول القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [٤] .

وفى مثل ذلك يقول الرسول الكريم : [احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، ولا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، بل قل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان] [٥] .

والمراد بـ (لو) هنا (لو) المتمنية المتحسِّرة ، وهى التى يقول فيها الشاعر :

ليت شِعرى ، وأين منى (ليتٌ) إنَّ (ليْتاً) وإنَّ (لوّا) عناء !

ويقول الآخر :

وليس براجع ما فات منى بـ (لَهْفَ) ولا بـ (ليتَ) رلا (لَوَ انّى) !

---

(١) البقرة : ١٧٠ (٢) المائدة : ١٠٤

(٣) الزخرف : ٢٤ (٤) آل عمران : ١٥٦

(٥) رواه مسلم فى كتاب « القدر » عن أبى هريرة ، حديث رقم (٢٦٦٤) ، باب : فى الأمر بالقوة وترك العجز ، والاستعانة بالله .

وقال بعض السَلَف : « الاشتغال بوقت ماضٍ تضييع وقت ثانٍ » .

المطلوب – إذن – أن يعيش الإنسان المؤمن القوى فى حاضره ، منطلقاً إلى مستقبله ، ولكى يحسن العيشة فى حاضره وزمانه ، وبعبارة أخرى : عصره ، ينبغى أن يعرفه ، حتى يتعامل معه على بصيرة .

وفى هذا ورد حديث أخرجه ابن حبان عن أبى ذر ، وفيه : [ينبغى للعاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، حافظاً للسانه ، مقبلاً على شأنه] (١) ، ومن الكلمات المأثورة : « رحم الله امرءاً عرف زمانه ، واستقامت طريقته » (٢) .

وهذه المعرفة قد تكون مطلوبة طلب استحباب ، أو طلب وجوب ، فإذا كانت هذه المعرفة وسيلة لازمة لأداء واجب ، كانت هى واجبة كذلك . وفقاً للقاعدة الفقهية الشهيرة : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

خذ مثلاً : الفقيه والمربِّى والداعية ، لا يستطيع أحدهم أن يصل إلى الصواب والرشد فى مجاله إذا كان يجهل عصره ، ويخاطب أهله بلغة عصر آخر ، فلا مراء أنهم لن يفهموا عنه . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من رَّسُول إلاَّ بلسَانِ قَوْمه ليُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (٣) ، يُفهم منه أنه كما يجب على صاحب الرسَالَة أن يتحدث بلسان قومه حتى يُفهمهم ويُبيِّن لهم ، يجب عليه أن يتحدث بلسان عصره ، حتى يُفْهِمَ أهله ويُبيِّن لهم ، وإلا لم تقم عليهم حُجَّة .

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه – الجزء الثانى ، حديث رقم (٣٦١) ، طبع الرسالة – عن أبى ذر أن هذا مما كان فى صحف إبراهيم ، وإسناده ضعيف جداً ، وحسبه أن يكون من كلام بعض السَلَف .

(٢) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير مرفوعاً عن ابن عباس ، وفيه راوٍ متهم ، وحسبه أن يكون من كلام ابن عباس . انظر : الحديث رقم (٤٤٤٠) من فيض القدير للمناوى .

(٣) إبراهيم : ٤

ولقد قرر فقهاؤنا المحققون : أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان ، والعُرْف والحال [1] ، فاعترفوا بأثر التغير الزمانى ، اعترافهم بأثر التغير المكانى ، بل كثيراً ما قدَّموا تغير الزمان على سائر التغيرات .

حتى إن « مجلة الأحكام العدلية » الشهيرة نصّت فى إحدى موادّها على هذه القاعدة فقالت : « لا يُنكَر تغير الأحكام بتغير الزمان » [2] .

ولهذا تغيَّرت بعض الفتاوى فى عصر الصحابة عما كان عليه الحال فى عصر النبوة ، كما فى قضية جمع المصحف ، وجلد الشارب فى عهد أبى بكر ، وقضية قسمة الأرض المفتوحة ، وجلد شارب الخمر ثمانين فى عهد عمر ، وقضية جمع الناس على مصحف واحد فى عهد عثمان ، والتقاط الإبل الضالة فى عهده ، وقضية تضمين الصنّاع فى عهد علىّ وقوله : « لا يصلح الناس إلا ذاك » .

وقد اختلفت الفتاوى فى عصر التابعين عن عصر الصحابة .

واختلفت فتاوى عصر الأئمة المتبوعين عن عصر شيوخهم من التابعين وأتباعهم .

واختلفت فتاوى أصحاب الأئمة وتلاميذهم عن فتاوى شيوخهم ، وأئمتهم ، لاختلاف العصر ، رغم قُرْب العهد . وكثيراً ما عبَّروا عن الخلاف

---

(١) انظر كلام ابن القيم فى أول الجزء الثالث من « إعلام الموقعين » .

(٢) انظر المادة (٣٩) من مجلة الأحكام وشرحها للأستاذ على حيدر فى « درر الحكام شرح مجلة الأحكام » : ١/ ٤٣ ، وانظر : تعليقنا عليها فى كتابنا « شريعة الإسلام صالحة لكل زمان ومكان » ص ١٣٢ ، ١٣٣

بين أبى حنيفة وصاحبيه الشهيرين أبى يوسف ومحمد بقولهم : إنه ليس اختلاف حُجَّة وبرهان، بل هو اختلاف عصر وزمان ؟ [1] .

* *

● معرفة الواقع من تمام معرفة العصر :

ومن تمام معرفة العصر : معرفة الواقع المعيش ، الواقع المحلى (الوطنى) ، والواقع الإقليمى (العربى) ، والواقع الإسلامى ، والواقع العالَمى .

وهذه المعرفة لازمة لكل مَن يريد تقويم هذا الواقع ، أو إصدار حكم له أو عليه ، أو محاولة تغييره .

وقد ذكر علماؤنا أن من واجب الفقيه أو المفتى أن يعرف الواقع قبل أن يفتى فيه بجواز أو منع ، أو حِلٍّ أو حُرْمة ، فلا يكون كل بحثه وكل همه حول ما يجب أن يكون ، مغفلاً ما هو كائن بالفعل ، ولهذا قال العلامة ابن القيم : إن الفقيه هو مَن يزاوج بين الواجب والواقع .

وقبل ذلك قال الإمام أحمد فى بيان ما يجب أن يتصف به المفتى ، فذكر العلم والحلم .. إلخ . ثم قال : ومعرفة الناس . وهذه العبارة « معرفة الناس » تعبير عن معرفة الواقع . وقد علّق عليها ابن القيم بقوله : هذا أصل عظيم يحتاج إليه المفتى والحاكم ، فإن لم يكن فقيهاً فيه ، فقيهاً فى الأمر والنهى ، ثم يطبّق أحدهما على الآخر ، وإلا كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح [2] .

ولا تتم معرفة الواقع على ما هو عليه حقيقة إلا بمعرفة العناصر الفاعلة فيه ،

---

(١) انظر : ما كتبته عن عامل تغير الفتوى من عوامل السعة والمرونة من ص ٢٠٠ - ٢٢٩ من كتابى « مدخل إلى دراسة الشريعة الإسلامية » - طبع مكتبة وهبة .

(٨) نقلها ابن القيم فى « إعلامه » : ٤/١٩٩ . وانظر كذلك كتابنا « الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية » ص ٤٧ ، ٤٨ - طبع دار القلم بالكويت .

والموجهة له ، والمؤثرة فى تكوينه وتلوينه ، سواء أكانت عناصر مادية أم معنوية ، بشرية أم غير بشرية . ومنها عناصر جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وروحية .

وتفسير الواقع كتفسير التاريخ ، يتأثر باتجاه المفسر وانتمائه العقدى والفكرى .

وقد حذَّرنا فى كتابنا « الصحوة وهموم الوطن العربى والإسلامي » من النظرات : الجزئية ، والمحلية ، والآنية ، والسطحية ، والتلفيقية ، والتبريرية .

وهذا ما ينبغى أن نُحذِّر منه هنا أيضاً فى بيان الواقع وتفسيره .

فعلينا أن نُحذِّر من الاتجاه « الإطرائى » للواقع ، ومحاولة تحسينه ، وإبراز صورته سالمة من كل عيب ، منزَّهة عن كل نقص ، وغض الطرف عن العيوب الكامنة فيه ،وإن كانت تنخر فى كيانه ، واتهام كل مَن ينقد هذه العيوب والآفات بأنه مشوش ، أو مبالغ ، أو متطرف .

ولنحذر كذلك من الاتجاه « التشاؤمى » الذى ينظر إلى الواقع بمنظار أسود ، يُجَرِّده من كل حسنة ، ويلحق به كل نقيصة ، ولا يرى فيه إلا ظلمات متراكمة ، موروثة من عهود التخلف ، أو وافدة مع عهد الاستعمار . حكومات خائنة - بلسان أهل الوطنية - أو كافرة - بلسان أهل الدين - وجماهير مُضلَّلة ، وأقطار هى مجموعة أصفار !! وما يُرجى من تغيير ، أو يؤمل من إصلاح ، فهو سرابٌ يحسبه الظمآن ماء .

ومثل ذلك : الاتجاه « التآمرى » فى تفسير الواقع ، الذى يرى وراء كل حدث - وإن صغر - أيدياً أجنبية ، وقوىً خفية ، تحركه من وراء ستار ، يهودية ، أو صليبية ، أو ماسونية ، أو غيرها ، ونحن لا ننكر أن هناك كيداً خفياً لهذه الأمة ، يكيده لها أعداؤها الظاهرون والمستخْفون - سنَّة الله فى خلقه - ولكن تضخيم ذلك بحيث يجعلنا « أحجاراً على رقعة شطرنج » يفت فى عضدنا ، ويؤيسنا من أى توجه إيجابى لإرادة التغيير ، ويريحنا بأن نشعر

أننا أبداً ضحايا مَن هو أقوى منا ، ولا حل أمامنا غير الاستسلام للواقع المرّ .
ومن ناحية أخرى يجعلنا هذا لا نعود على أنفسنا باللائمة ولا نحاول إصلاح ما فسد ، وتدارك ما وقع .

إن أولى من تعليق أخطائنا على مشجب التآمر الخارجى ، أن نردها إلى الخلل الداخلى ، أى الخلل فى أنفسنا قبل كل شىء . وهذا ما قرره القرآن بعد هزيمة غزوة أُحُد ، حيث خاطب المسلمين فقال : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (١) .

وقريب من ذلك : الاتجاه « التنصّلى » فى تفسير الواقع ، بمعنى أن أحداً لا يريد أن يتحمل مسئولية ما فى هذا الواقع من سوء وانحراف ، فكل واحد ، وكل فريق ، يريد أن يحمل وزره على غيره ؛ أما هو فلا ذنب له ، ولا تَبِعة عليه .

الكل يشكو من الفساد ، ولكن مَن المسؤول عن فساد الحال ؟

جمهور كبير من الناس يحملون المسؤولية على العلماء ، والعلماء يحملون المسؤولية على الحكام ، والحكام يحملونها على الضغوط الخارجية أو الضرورات الداخلية .

والحق أن الجميع مسؤولون ، كل حسب ما له من مُكنة وسلطة : الجماهير والعلماء ، والمفكرون والمربون والحكام . وفى هذا جاء الحديث الصحيح : [كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته] (٢) .

ومن التفسيرات المحذورة للواقع : التفسير « التبريرى » الذى يحاول أن يضفى على الواقع ، ما يجعله مقبولاً ومشروعاً ، وإن حاد عن الحق وسواء السبيل ، وفى هذا لون من التدليس والتلبيس ، بإظهار الواقع على غير

---

(١) آل عمران : ١٦٥ .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر . انظر : صحيح الجامع الصغير برقم (٤٥٦٩) .

حقيقته ، وإلباسه زِيّاً غير زيه ، كالذى يُلبس الخواجة الأوروبى جبة وعمامة ، فيبدو وكأنه شيخ أزهرى مسلم ، وما هو من الإسلام ولا الأزهر فى شىء .

إننا نريد معرفة واقع عصرنا وعالمنا عموماً ، وواقع أمتنا خصوصاً كما هو ، دون تحريف ولا تزييف ، ولا تهويل ولا تهوين ، ولا مدح ولا ذم ، مستخدمين الأساليب العلمية الموضوعية فى الكشف والرصد والتحليل ، وفى هذا ما يساعدنا على تشخيص الداء ، ووصف الدواء .

إن خصومنا يعرفوننا تماماً ، من قمة رأسنا إلى أخمص قدمنا ، بل نحن - كما قال الدكتور كمال أبو المجد فى محاضرة له فى جامعة قطر - : مكشوفون لهم حتى النخاع .

فهل عرفنا نحن خصومنا ؟ وأقصد بخصومنا : أصحاب المشروع الحضارى المخالف لمشروعنا ، وكل الخائفين منا ، والطامعين فينا .

وإذا كنا لم نعرف أنفسنا كما عرفها غيرنا ، فأنَّى لنا أن نطمع بمعرفتهم ؟

هل عرفنا « البُعد الدينى » فى سياسة الغرب العالمية ، وسياسته معنا على وجه الخصوص ؟ وعلى الأخص مع إسرائيل ؟ (١) .

هل عرفنا دور الكنيسة الحقيقى ، وأصابعها المؤثرة فى السياسة ، برغم انفصال الدين عن الدولة ؟

هل عرفنا ما ينفقه الغرب من مليارات وما يقوم به من جهود ، فى سبيل التنصير عامة ، وتنصير المسلمين خاصة (٢) ؟

---

(١) انظر كتاب « البُعد الدينى فى السياسة الأمريكية » للدكتور يوسف الحسن ، من منشورات مركز دراسات الوحدة العربية .

(٢) انظر كتاب « التنصير » . وهو يتضمن الترجمة العربية للبحوث التى قدَّمها =

هل عرفنا أن الغرب المعاصر لم ينفصل عن تراثه ، بل بنى عليه ؟ ولم يفعل ما يطالبنا به بعض « التقدميين » أو « الليبراليين » منا ، وهو الانسلاخ من جلدنا ، أى من تراثنا [1] .

يقول المفكر المغربى الدكتور محمد عزير الحبابى : الغرب نفسه يتغير باطراد فى صيرورة متصاعدة ؛ فلا غرابة أن يعتمد على تراثه الخاص ، عساه يحافظ على معالم ثابتة فى هُوِيته ، وينفتح على ما يجرى خارج مناطقه ، دون تخوف من الذوبان . فمن العبث أن نقلد الغرب فى كل شىء علّنا نلتحق بالمعاصرة ، وفى الآن نفسه يرفض بعضنا الاقتداء به فى المحافظة على أصالتنا ، كما يحافظ هو على أصالته [2] .

* *

● عصرنا بين الإيجابيات والسلبيات :

ولعصرنا خصائص تميزه عن غيره يجب أن ندركها ونستوعبها ، بما فيها من إيجابيات وسلبيات .

فهو عصر العلم والتكنولوچيا .

وهو عصر الحرية وحقوق الإنسان ، واستقلال الشعوب .

وهو عصر السرعة والقوة والتغيرات السريعة ، والتطورات الهائلة .

وهو عصر التضامّ والالتحام ، والظهور فى كتل كبيرة .

وهو عصر التخطيط والتنظيم لا الارتجالية والفوضى والتواكل .

= كبار المبشرين البروتستانت فى أمريكا إلى مؤتمر كلورادو سنة ١٩٧٨ م ، والخاص بـ « تنصير المسلمين فى العالَم » ، وهو كتاب خطير يجب أن يقرأ .

(٢) انظر كتاب « التراث وتحديات العصر » ص ١٠٤

وهو عصر اقتحام المستقبل ، وعدم الاكتفاء بالواقع ، فضلاً عن الانكفاء على الماضى .

وهذه كلها من إيجابيات العصر وإنجازاته ، إذا صحَّت الأهداف ، ووضعت الضوابط .

ولكن للعصر جوانب أخرى اقتضتها سُنَّة الله فى هذا الكون ، حيث تمتزج فيها الخيرات بالشرور ، والمنافع بالمضارّ ، واللّذات بالآلام .

فهو عصر غلبة المادية والنفعية .

وهو عصر تدليل الإنسان بإشباع شهواته .

وهو عصر التلوث بكل مظاهره .

وهو عصر الوسائل والآلات ، لا عصر المقاصد والغايات .

وهو عصر القلق والأمراض النفسية ، والتمزقات الاجتماعية .

* *

● المعاصرة بين الجبر والاختيار :

وإذا كان لعصرنا سلبياته كما له إيجابياته ، فهل من مقتضى المعاصرة أن **نأخذ العصر بكل ما فيه ، باعتباره وحدة لا تتجزّأ ؟ أم لنا حق الانتقاء والتخيّر ؟**

وهذا يقتضينا أن نسأل هنا سؤالاً مهمّاً :

ما هو العصر ؟ وما موقفنا منه ؟

أهو قدر غالب لا مفرّ من الخضوع له ، والانحناء لجلاله ، ولا مفرّ لنا من أن نأخذه بعجره وبجره ، وخيره وشره ، وحلوه ومرّه ؟

أم من حقنا أن نأخذ من العصر أحسنه وأمثله ، وندع ما فيه مما لا يلائم عقائدنا وشرائعنا وقيمنا ؟

إن « العصر » – فى واقع الأمر – مثل « الوطن » هو الناس الذين يعيشون فيه ، بأفكارهم ومعارفهم وأعرافهم ومشاعرهم ، وأخلاقهم وأعمالهم ، وأنظمتهم وثقافاتهم ، بما فيها من صواب وخطأ ، ومن استقامة وعوج ، ومن خير وشر ، ومن نفع وضر .

ومن حق الناس – بل من واجبهم – أن يميِّزوا بين الصواب فى الفكر ، والخير فى السلوك ، والنافع من العمل ، فى العصر ، وبين الخطأ فى الفكر ، والشر فى السلوك ، والضار فى العمل ، مما جاء به العصر ، فيحرصوا على الجانب الأول ، ويأخذوا به ، ويجتهدوا فى اجتناب الجانب الآخر ما وسعهم الجهد .

ولسنا هنا مع « الجبرية الزمانية » التى تعتبر الإنسان « وعاء » يملؤه العصر بما يشاء ، وإن لم يشأ الإنسان .

كما أن هناك « جبرية مكانية » ترى الإنسان « مسيّراً » لبيئته الجغرافية ، هى التى تحدد شخصيته ، وتوجِّه فكره وسلوكه .

ونحن نرفض « الجبريات » كلها ، التى تعتبر الإنسان مُسيَّراً لا مُخيَّراً ، ومقهوراً لا مريداً ، سواء فى ذلك « الجبرية الدينية » القديمة التى تجعل الإنسان كريشة تحركها رياح الأقدار أم « الجبرية الاجتماعية » التى ترى الفرد دمية يُحرِّك خيوطها المجتمع ، أم « الجبرية السياسية » التى تشيع الآن وتجعل مجتمعاتنا كلها « أحجاراً على رقعة الشطرنج » !

إن الإنسان يتأثر – ولا ريب – ببيئته الخاصة والعامة ، المادية والثقافية ، كما يتأثر بعصره وزمانه ، ولكنه لا يفقد إرادته واختياره أمام هذه المؤثرات ، فقد منحه الله من القوى والملكات ما يجعله قادراً على حمل أمانة المسئولية ، وتقرير مصيره بنفسه وصنع يده : ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ

فَلِنَفْسِه ، وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ [1] ، ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [2] .

ومن المعلوم أن مِنَ الناس مَنْ يعيش خارج عصره ، فهو يهرب منه ليحيا فى الماضى القريب أو البعيد ، وهربه من العصر إما لنفوره منه وكراهيته له ، لما يشتمل عليه من أمور تهدد كيانه الاعتقادى أو الفكرى أو العملى . وإما لخوفه منه ، وضعفه أمام مغرياته وعوائقه ، وربما بالغ فى هذا الخوف لجهله بحقيقة العصر ، أو ضعف معرفته به ، أو فهمه على غير وجهه ، فلا يجد أمامه إلا العزلة عنه ، بدل المواجهة التى لا يملك أسلحتها .

كما أنَّ مِن الناس مَن يندمج فى العصر إلى حدّ الذوبان فيه ، فهو لا يقف من العصر موقف الفاحص المنتقى ، الذى يأخذ ويدع ، بل يأخذه كله ، وينزل فى بحره إلى الأعماق ، إلى حدّ قد يغرق فيه ، فلا يجد شاطئاً ، ولا قارباً للنجاة .

والخير فى الوسط الذى يعرف العصر ، ويحيا فيه ، آخذاً أحسن ما فيه ، ومنتفعاً بكل جوانبه الإيجابية الخيِّرة ، مُعْرِضاً عن الجوانب الأخرى التى تضر ولا تنفع .

* *

● ليس العصر هو الغرب :

ولا بد هنا من إيضاح حقيقة لها وزنها وقيمتها ، وهى : أن العصر ليس هو الغرب .

فمِن الناس مَن يعتبر أن عصرنا هو الغرب بكل ما فيه ، من خير وشر ، ورُشد وغىّ ، وهدىً وضلال ، واستقامة وانحراف . وأننا إذا شئنا أن نعيش

---

(١) الأنعام : ١٠٤ (٢) الإسراء : ٧

عصرنا حقاً ، يلزمنا أن نحيا حياة الغربيين بخيرها وشرها ، وحلوها ومرّها ، ما يحب منها وما يُكره ، وما يُحمد منها وما يُعاب .

ولكن البحث المتعمق المنصف يرينا أن الغرب - وإن كان هو المهيمن فى عصرنا على الحياة ، وكانت ثقافته هى الثقافة السائدة والغالبة على العالَم - ليس هو كل العالَم ، ولا كل العصر .

فهناك العالَم الإسلامى - على امتداده وسعته - له ثقافته الخاصة ، ومعارفه وقيمه المتميزة ، ورغم سطوة الغرب الساحقة فى عالَم الثقافة ، مثل سيطرته فى عالَم السياسة ، ورغم تأثر العالَم الإسلامى بالغرب تأثراً هائلاً فى كل أنماط الحياة - يظل العالَم الإسلامى متميزاً عن غيره من العوالِم الأخرى ، كتابية كانت أم وثنية .

وهناك عالَم الشرق الأقصى بدياناته وفلسفاته ، وطقوسه واتجاهاته ، وما فيها من حقائق وأساطير ، تكوّن جزراً ثقافية أخرى لم تستطع الديانات السماوية الكبرى أن تؤثر فيها التأثير الثقافى المطلوب .

ومن هنا نقول : إن العصر أوسع من الغرب ، برغم تأثيره البالغ عليه .

كما نقول أيضاً : إن الغرب ليس كله شراً ولا ضلالاً ، فكم فيه من علم نافع ، وكم فيه من عمل صالح ، وكم فيه من خُلُق كريم ، وكم فيه من إنجازات هائلة ، وإمكانات ضخمة ، يمكن توظيفها لصالح الإنسان ، كلّ إنسان .

لقد أقرّ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعض الأحكام والتقاليد التى كان معمولاً بها فى الجاهلية ، حيث لم يجد فيها ما يخالف ما جاء به الإسلام .

وأقرّ أشياء أخرى مع بعض التعديل ، لتتفق مع هداية الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً .

ونقل أشياء من الأمم الأخرى ، ولم ير فى ذلك بأساً ، مثل أسلوب حفر الخنادق ، ونصب المنجنيق فى الحرب ، ولم تكن من مكايد العرب فى حروبهم .

ونوَّه الرسول عليه الصلاة والسلام بحلف اشترك فيه فى صغره ، وهو فى الجاهلية ، لرد المظالم ، ونصرة المظلوم ، وقال عنه : [لو دُعيتُ لمثله فى الإسلام لأجبت] (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : [أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد :

« ألا كلّ شىء ما خلا الله باطل »] ! (٢)

وإنما قالها لبيد فى الجاهلية قبل أن يسلم .

وأشاد عليه السلام بخطبة سمعها قبل البعثة من قسّ بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ .

لا حَرَج علينا إذن أن نقتبس من الغرب ما ينفعنا ، وما يليق بنا ، ويتلاءم مع قيمنا وثقافتنا ، وما يؤكد المبادىء التى دعا إليها ديننا .

وقد توجب علينا عملية الملاءمة هذه أن نُعدّل ونُحوّر - بالحذف والإضافة - فيما نقتبسه حتى يغدو صالحاً لنا ، متوافقاً مع أصول شريعتنا ، ونظام حياتنا ، وظروف بيئتنا . وقد يصبح بهذا التعديل والتحوير جزءاً من وجودنا المعنوى ، وكياننا الثقافى ، ويفقد جنسيته الأولى .

لا جُنَاح علينا أن نأخذ من الديموقراطية وضماناتها وعناصرها ما يؤكد مبدأ

---

(١) رواه ابن إسحاق فى السيرة كما فى ابن هشام ، بسند صحيح ، إلا أنه مرسل ، ولكن له شواهد تقويه . انظر : تخريج فقه السيرة للألبانى ، حديث رقم (٢٢) .

(٢) متفق عليه عن أبى هريرة ، كما فى صحيح الجامع الصغير (١٠١٣) .

الشورى ، ومبدأ النصيحة والمحاسبة للحاكم ، وحق عزله إن جار عما بويع عليه [1] .

وأن نأخذ من نظام القضاء والمحاكمات الغربى ، وأنواع المحاكم ودرجاتها ، ما يؤكد مبدأ العدل الذى فرضه الإسلام ، وأقام عليه الحكم .

وأن نأخذ مما ابتكره الغرب من أدوات للثقافة - كالسينما والمسرح والتلفاز والإذاعة - على أن نفرغ فيها المضمون الذى يتناسق معنا ، ويدعم هويتنا ، ونضع لها من الشروط والضوابط ما يجعلها أدوات بناء لا معاول هدم .

وكل ما لدى الغرب من وسائل وآليات لا بأس بأخذه منه ، إذا استخدمناه فيما يخدم أهدافنا ومقاصدنا . إذ لا حكم للوسائل إلا باعتبار مقاصدها ، وقد يرتقى أخذها واستيرادها إلى درجة الوجوب والفرضية لا مجرد الجواز والمشروعية ، إذا كانت وسيلة لازمة ومتعينة لأمر واجب ، وفقاً للقاعدة الشهيرة : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

وليس هذا خاصاً بالوسائل والأدوات المادية ، بل يشمل المعارف والأفكار النظرية أيضاً .

وقد نبهتُ فى بعض ما كتبت من قبل [2] أن رفضنا لبعض الفلسفات والنظريات الكلية التى ظهرت فى الغرب ، وكان لها أتباع وأنصار ، كما كان لها خصوم وأعداء ، مثل نظرية « دارون » فى النشوء والارتقاء ، أو نظرية

---

(١) انظر : « الإسلام والديموقراطية » ، « وتعدد الأحزاب فى الدولة الإسلامية » من كتابى « فتاوى معاصرة » : ٦٣٦/٢ - ٦٦٥ ، طبع دار الوفاء بمصر ، وانظر : فصل « هم الاستبداد السياسى » من كتابى « الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى » . نشر دار الرسالة ، بيروت ، ودار الصحوة بالقاهرة .

(٢) انظر كتابى « بيِّنات الحل الإسلامى » ص ٨٢ - ٨٦ تحت عنوان « مشروعية الاقتباس مما عند غيرنا وحدوده » .

« دوركايم » فى نشأة الدين وتفسير الظواهر الاجتماعية ، أو فلسفة « فرويد » فى التحليل النفسى وتفسير السلوك الإنسانى ، أو فلسفة « ماركس » فى التفسير المادى للتاريخ - رفضنا لهذه النظريات فى فلسفتها الكلية ، واتجاهها العام ، لا يعنى بالضرورة أن كل ما قاله هؤلاء باطل ، فقد نجد عند كل واحد من هؤلاء فى مجاله ، من النظرات العميقة ، والتحليلات الدقيقة ، والآراء الرشيدة ، ما ينبغى لنا أن ننتفع به ، ونفيد منه لفكرنا وثقافتنا ، تطبيقاً لما قاله سلفنا : « خذ الحكمة من أى وعاء خرجت » .

وقد حكى القرآن على لسان بعض المشركين كلمات حكيمة تتلوها الأجيال في كتاب الله ، وتستضىء بها ، وإن كان قارئها غير مؤمن ، كما فى قوله على لسان ملكة سبأ : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ (١) .

فبيَّنَتْ ما يفعله الفتح الملوكى (الاستعمارى) بالبلاد والعباد . وقد قالت ذلك قبل أن تسلم مع سليمان لله رب العالَمين .

ومثل ذلك قول امرأة العزيز : ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِى ، إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ، إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

وقد روى أبو داود عن الصحابى الفقيه معاذ بن جبل : « إن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . ولما قال له بعض أصحابه : وما يدرينى - رحمك الله - أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق ؟ قال : بلى ، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات - وفى بعض الروايات : المشتبهات - التى يقال لها :

---

(١) النمل : ٣٤ (٢) يوسف : ٥٣

ما هذه ؟! ولا يثنيك ذلك عنه ، فإنه لعله أن يراجع ، وتلقّ الحق إذا سمعته - أى ولو من منافق - فإن على الحق نوراً »[1] .

* *

● استيراد الثقافة الغربية بكل عناصرها :

ومن الدعوات المشبوهة هنا ما ينفّقُ له بعض الناس من وجوب فتح النوافذ للثقافة الغربية بكل ما فيها من صواب وخطأ ، ورشد وغىّ بحجتين يحتجون بهما :

الأولى : أن هذه الثقافة ثقافة عالَمية ، وليست ثقافة غربية . فإذا لم نفتح لها الأبواب والنوافذ على مصاريعها ، تخلّفنا عن ركْب العالَم المعاصر ، وبتنا فى عزلة قاتلة عن مسيرته الثقافية المتطورة .

والثانية : أن الثقافة أو الحضارة لا تتجزأ ، فهى لا تعطيك بعضها ، حتى تأخذها كلها ، فأجزاؤها مرتبطة ارتباطاً عضوياً بعضها مع بعض ، لا يجوز أن نأخذ الجانب المادى أو العلمى ، دون الجانب الأدبى ، ولا يسوغ أن نأخذ بعض الجانب الثقافى دون بعض .

* *

● دعوى عالَمية الثقافة :

أما الشبهة الأولى فهى مغالطة مكشوفة ، فمن المقرر المعلوم لدى الدارسين أن الثقافة غير العلم المحض ، القائم على الملاحظة والتجربة ، فهذا العلم التجريبى عالَمى حقّاً ، فقوانين الفيزياء والكيمياء ، والفلك والتشريح والطب وغيرها قوانين عامة ، لا تتأثر بدين ولا وطن ولا قوم ، إلا فى عرضها

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب « السنَّة » ، باب : لزوم السنَّة . عن معاذ موقوفاً برقم (٤٦١١) .

وتدريسها ، وربطها بالفلسفة العليا للكون كله ، وللوجود كله ، ووضع الضوابط لتوظيفها فيما يخدم الأهداف العليا للإنسان ، ولا يتعارض مع القيم الدينية والأخلاقية .

أما الثقافة فخصوصيتها ثابتة ومؤكدة ؛ لأنها ليست مجرد معارف ذهنية مجردة ، بل هى معارف وإدراكات ، ممزوجة بقيم واعتقادات ، مجسّدة فى أعمال وسلوكيات ، تعبِّر عنها شعائر وآداب وفنون ، تُقرأ وتُسمع ، وتُحَس وتُرَى .

وهى تتأثر فى ذلك كله بالدين واللغة ، والبيئة ، والمواريث الثقافية والحضارية ، والتفاعل مع الآخرين إيجاباً أو سلباً .

ولهذا تختلف ثقافة الشعوب بعضها عن بعض ، فثقافة أهل الشرق غير ثقافة أهل الغرب ، وثقافة أهل الإلحاد غير ثقافة أهل الدين ، وثقافة أهل الكتاب غير ثقافة الوثنيين ، وثقافة الحَضَر غير ثقافة البدو ، وثقافة العرب غير ثقافة العجم ، وثقافة المسلمين غير ثقافة غيرهم من أهل الملل الوضعية أو السماوية .

ولو نظرنا إلى الغرب ، لوجدنا ثقافة البلاد الليبرالية تختلف كثيراً عن البلاد الشيوعية ، ثم وجدنا الليبراليين يتفاوتون فيما بينهم ، فالثقافة اللاتينية غير السكسونية ، غير الجرمانية ، وهذه كلها غير الثقافة الأمريكية .

صحيح أن هناك قَدْراً مشتركاً بينها ، لاتفاقها فى الدين المسيحى ، والاستمداد من الحضارتين الإغريقية والرومانية ، وتشابه البيئة ، ولكن يبقى لكل منها تميّزه ومشخَّصاته .

أما المسلمون - والعرب خاصة - فلهم ثقافتهم الخاصة التى تعبِّر عن كينونتهم الحضارية المتميزة ، والتى اتسمت بخصائص قلّما تتوافر لغيرها ، تحدثنا عنها فى موضعها .

* *

● هل الحضارة كلّ لا يتجزّأ ؟

وأما الشُبْهة الأخرى ، وهى أن الثقافة أو الحضارة مرتبطة ارتباطاً عضوياً لا يقبل التجزئة ، بحيث يستحيل أخذ بعضها دون بعض . فهو قول مرفوض ، ودعوى مردودة ، يرفضها المنطق ، ويردها التاريخ والواقع .

لقد دعا الدكتور طه حسين إلى ذلك فى الثلاثينيات من هذا القرن العشرين - فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر - كما دعا إليه آخرون قبله وبعده وردّ عليهم آخرون قديماً وحديثاً .

وقد عرضت لذلك فى كتابى « الحلول المستوردة » [١] ، وبيَّنتُ أن الانتقاء من الحضارات والثقافات ممكن وواقع . وقد حدث قديماً وحدث فى عصرنا .

فقد أخذ المسلمون فى عصورهم الذهبية عن الفُرْس والهنود واليونان ، جوانب مختلفة من حضاراتهم وثقافاتهم ، وانتفعوا بها بقدر أو بآخر ، ولم يكن حتماً عليهم أن يأخذوا كل ما فى هذه الحضارات أو الثقافات .

وأخذ الأوربيون بعد ذلك من المسلمين المنهج العلمى الاستقرائى ، كما شهد بذلك المنصفون من مؤرخى العلم الغربيين أنفسهم [٢] ، وانتفعوا بهذا المنهج أيما انتفاع ، ولم يكن لازماً لذلك أن يأخذوا من المسلمين عقائدهم وتصوراتهم ، وعباداتهم وآدابهم ، وغير ذلك مما يُكوِّن ثقافتهم المتكاملة .

وأخذ اليابانيون اليوم من الغربيين علمهم الطبيعى والرياضى ، وما أثمره من تطبيقات تكنولوچية ، فأفادوا منه وتفوّقوا فيه على أصحابه أنفسهم ، ولم يأخذوا منهم ما يتعلق بالعقائد والشعائر والتقاليد ، وما ضرّهم ذلك شيئاً ، بل حفظ عليهم ذاتيتهم ، وشخصيتهم التاريخية المستقلة .

---

(١) فصل « كيف عُزِل الإسلام عن قيادة المجتمع » ؟

(٢) من أمثال « بريفولت » و« غوستاف لوبون » و« جورج سارتون » وغيرهم ، انظر : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام واكتشاف المنهج العلمى فى العالم الإسلامى، للدكتور سامى على النشار ، ص ٣٨٢ - ٣٨٥ ط.دار المعارف الثانية .

والمؤرخ المفكر الغربى الشهير « توينبى » ينقد بشدة غير الغربيين الذين يقلبون الحضارة الغربية بكل عناصرها ، ويرى ذلك من سوء حظ البَشرية . وذلك حين يتحدث عن البلاد التى تحررت من الاستعمار الغربى ، فيقول فى « محاضراته » :

« ولكن هذه البلاد التى استقلت سياسياً ، ما زالت غير متحررة تماماً من الوجهة الثقافية ، فهى لا تزال متأثرة بالأفكار والمُثُل العليا الغربية ، دون تمييز ودون أى انتقاد لها » .

وفى موضع آخر يقول : « على أن كل هذه البلاد التى نجحت فى أن تحرر نفسها من سيطرة الغرب السياسية ، قد استغلت حريتها على نحو غير متوقع على الإطلاق . فقد ناضلت هذه البلاد بعنف شديد ضد السيطرة السياسية للغرب . ويمكن القول بأن كفاحها هذا قد كلّل بالنجاح فى كل الحالات حتى الآن . ولقد كان من المتوقع بعد أن تمكنت من آن تتحرر سياسيّاً من الغرب ، أن تستخدم هذه الحرية الجديدة التى اكتسبتها فى النضال ضد المدنية الغربية بوجه عام ؛ أى أنه كان من المتوقع أن تستخدم هذه البلاد حريتها المكتسبة حديثاً ، لكى ترجع إلى أسلوبها التقليدى فى الحياة ، وهو الأسلوب الذى كان سائداً فى حياتها قبل أن يسيطر عليها الغرب . ولكن الذى حدث فى جميع الحالات تقريباً - كما نعلم - هو أن البلاد التى تحررت حديثاً قد استخدمت حريتها للغرض العكسى تماماً ؛ أى أنها قد استخدمتها لتقتبس - بمحض اختيارها - عناصر من المدنية الغربية ، أعنى من أسلوب الحياة الحديثة ، وقد فعلت ذلك بحماسة ، وبلغت حماستها هذه حدّاً لم يكن الحكّام الغربيون السابقون يجرؤون على أن يفرضوا به المدنية الغربية عليهم ، ذلك لأن نظام الحكم الأجنبى ، يتعين عليه دائماً أن يكون أكثر حذراً من نظام الحكم القومى ، وهناك أمور لا يجرؤ النظام الأجنبى على فعلها مطلقاً ، ومع ذلك يجرؤ عليها النظام القومى » .

« ولكننى أعتقد أنه سيكون من سوء حظ الجنس البَشرى كله - وضمنه

الغرب ذاته - أن يتّجه الجزء غير الغربى من العالَم إلى قبول المدنية الغربية بكل عناصرها دون تمييز ، ودون تفرقة بين ما هو نافع وما هو ضارّ فيها ، وأقول : إن هذا يكون من سوء الحظ ، لأن المدنية الغربية - شأنها شأن أى مدنية أخرى - فيها أوجه نافعة وأوجه ضارّة .

ذلك لأن المستوى المادى للمعيشة ، ليس غاية فى ذاته ، وإنما هو وسيلة لغاية أخرى هى رفع المستوى الروحى .

وعلى ذلك فمن وراء رأس المال المادى ، يوجد رأس المال الإنسانى ، وهو أهم رأس مال يملكه البَشر » (١) .

* *

● دفاع العلمانيين عن استيراد المذاهب والأفكار :

لقد دافعت بعض الأقلام العلمانية في ديارنا العربية الإسلامية عن اتجاه « الاستيراد » : استيراد المذاهب والأفكار من خارج أرضنا ، واستغرب بعضهم النقد الذى يوجهه « دعاة الأصالة » إلى المذاهب المستوردة ، والأفكار المستوردة ، والحلول المستوردة ، وحُجَّة هؤلاء : أن الحياة قائمة على التبادل ، هذا يصدّر ، وهذا يورّد ، وهذا يبيع ، وهذا يشترى ، وهذا يعطى ، وهذا يأخذ . وكما يحدث هذا فى عالَم « الأشياء » ، فلماذا لا يحدث مثله فى عالم « الأفكار » ؟ وفق تقسيم مالك بن نبى رحمه الله .

وغفل هؤلاء عن عدة حقائق :

الأولى : أن دعاة الأصالة لا ينكرون استيراد الأفكار الجزئية ، أو الحلول الجزئية لمشكلاتنا من الغرب أو الشرق ، إذا كانت ملائمة لنا ، محققة لأهدافنا ، نختارها نحن ولا تُختار لنا آو تُفرض علينا . بل قد يوجبون الاستيراد إذا رأوا فيه مصلحة متعينة لأمتنا ، وبخاصة ما يتعلق بالوسائل والأساليب .

---

(١) انظر : محاضرات « أرنولد توينبى » ص ٣٥ - ٤٠ ، وانظر كتابنا : « الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا » ص ١٣٧ - ١٣٨ ، طبع الرسالة ، بيروت .

إنما ينكرون استيراد مذهب كامل نتخذه مرجعاً لنا ، أو فكر كلى ، أو حل كلى ، نؤسس عليه حياتنا كالفكر - أو الحل - الليبرالى الراسمالى ، أو الفكر - أو الحل - الاشتراكى الثورى الماركسى ، كما نادى منادون بهذا أو ذاك أيام نفاق سوقها فى بلادها .

الثانية : أن دعاة الأصالة ينكرون أن نظل نحن نستورد أبداً ولا نصدر ، ونشترى ولا نبيع ، ونأخذ ولا نعطى ، ونستهلك ولا ننتج ، فهذا ليس من « التبادل » فى شىء . إنما نحن - حينئذ - سوق لسلع الآخرين ، وأفواه مفتوحة لالتهام منتجاتهم . وهذه هى « التبعية » الذليلة المرفوضة ، التى لا يجوز أن ترضى بها أمة كريمة على نفسها ، لا فى عالَم الأشياء ، ولا فى عالَم الأفكار .

وإذا سقطت أمة فى مرحلة ما من تاريخها فى هوة الاستيراد من جانب واحد ، فعليها أن تعتبر ذلك نقطة ضعف يجب أن تتجاوزها وتتحرر منها ، ولا تدافع عنها أو تباهى بها .

الثالثة : أن علم الاقتصاد الذى يستند إليه هؤلاء العلمانيون ، والذى يرى أن الحياة قائمة على التبادل ، وأن الاستيراد كثيراً ما يكون ضرورياً للأمم والجماعات ، هذا العلم نفسه يقيد هذا بقيود تجعله وسيلة نفع لا أداة ضرر ، وآلة بناء لا معول هدم .

فلا يجوز أن نستورد من غيرنا ما يضرنا ماديّاً أو معنويّاً ، كالذي يسمونه « المشروبات الروحية » وأدوات الاستهلاك الترفى ، ولوازم اللهو الحرام .

ولا يجوز أن نستورد إذا كان الاستيراد يعوِّد الشعب الاتكال على ما عند غيره ، لا الاعتماد على نفسه ، ليأكل مما يزرع ، ويلبس مما يصنع ، ويستهلك مما ينتج ، ويدافع عن نفسه بأسلحة من صنع يديه .

وفوق ذلك كله لا يجوز أن نستورد سلعة من غيرنا إذا كان لدينا سلعة مثلها ، ناهيك بسلعة أفضل منها .

وهذا ما جعل دعاة الأصالة العربية الإسلامية ينكرون استيراد آيديولوچيات ومذاهب ، نبتت فى أرض غير أرضنا ، لتخاطب قوماً غير قومنا ، وتحمل لتفسير الوجود والمعرفة والقيم فلسفة غير فلسفتنا ، وتتعامل مع الله والإنسان ، والكون والحياة بثقافة غير ثقافتنا .

* *

● النموذج الغربى للتنمية :

وإذا كان الغرب ليس هو العصر ، فمن حقنا أن نتوقف أمام بعض دعاة المعاصرة الذين يريدوننا – لكى نكون معاصرين حقّاً – أن نأخذ « النموذج الغربى » فى التنمية ، بكل ما أفرز من سلبيات فى محيط الكون والحياة والإنسان . ويرون أنه لا سبيل لأن تنمو مجتمعاتنا وتنهض من كبوتها ، وتخرج من إسار التخلف ، إلا إذا قلّدت هذا النموذج حذوه القذّة بالقذّة .

هذا مع أن الغربيين أنفسهم اليوم يوجهون سهام نقدهم إلى هذا النموذج الذى غلبت عليه نزعات المادية والنفعية ، والآنية والمحلية والعنصرية جميعاً .

لقد عدا النموذج الغربى على التوازن الكونى ، وأمسى الناس يشكون اليوم من الخلل الذى أصاب طبقة « الأوزون » ، والذى ترتب عليه خلل كبير فى حياة الناس ، قد يتفاقم فيؤدى إلى نتائج لا يعلم عواقبها إلا الله .

وعدا النموذج الغربى على « التوازن الفطرى » الذى أودعه الله الحياة بعناصرها وأنواعها المختلفة ، فكان من أثره ما جعل الناس يشكون من « تلوّث البيئة » بمختلف مظاهره .

وأشد من خطر تلوّث البيئة : تلوّث الإنسان نفسه . حين تفسد فطرته ، وتختل موازينه ، ويعوج تفكيره وسلوكه ، فيرتكب من الحماقات ، ويقترف من المنكرات والشذوذات ، ما يُعاقَب عليه فى الدنيا ، قبل الآخرة ، تعاقبه فطرة الله فى الأرض قبل أن تعاقبه محكمته فى السماء .

ومن هنا كان « الإيدز » ، وكانت الأمراض العصبية والنفسية ، وكان القلق والاكتئاب ، المنتهى بالانتحار ، والتخلص من الحياة ، أو العيش فى الحياة باعتبارها ملهاة أو مأساة ! على نحو ما قال شاعرنا العربى قديماً :

ليس مَن مات فاستراح بميْتٍ إنما الميْت ميّتُ الأحياء

إنما الميت مَن يعيش كئيباً كاسفاً بالُهُ قليلَ الرجاء

لقد أدّى هذا النموذج بنزعاته تلك إلى أن جعل الإنسان عبداً للآلة ، التى هو صانعها ، وأن أصبح فى النهاية ترساً فى هذه الماكينة الكبيرة الجبارة ، إن لم يسر معها ويدر بدورانها ، طحنته عجلاتها ، ولم يبال به أحد .

لقد قدَّمت له التنمية الصناعية - الخالية من القيم الإيمانية والأخلاقية - الوسائل ، ولم تقدِّم له الغايات ، قدَّمت له الرفاهية ، ولم تقدِّم له السكينة ، منحته المادة ، وسلبته الروح ، أعطته العلم ، وحرمته الإيمان .

لا غرو أن وجدنا من فلاسفتهم ومفكريهم ، وعلمائهم وأدبائهم ، من سلّطوا أضواءهم الكاشفة والناقدة على عورات هذا النموذج المسرف فى المادية ، والذى جعل التنمية غاية أو إلَهاً معبوداً .

ومن أشهر نقادهم هنا : اثنان من حملة جائزة نوبل فى العلوم ، وهما : « ألكسيس كاريل » ، و« رينيه دوبو » [(١)] .

هذا ما صنعه الغرب بنفسه حتى نما ، ناهيك بما صنعه بغيره من الشعوب والأوطان .

---

(١) انظر : « رينيه دوبو » فى كتابه « إنسانية الإسان » ترجمة د . نبيل صبحى الطويل ، و« ألكسيس كاريل » فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » ترجمة أسعد شفيق ، و« كولن ولسون » فى كتابه « سقوط الحضارة » ، وغيرهم .

لقد سرق ثرواتها سرآ وعلانية ، ليكوّن منها رصيداً ضخماً لثروته الكبرى . لقد أفقرها ليغتنى هو . إنها اللصوصية بعينها .

لقد قتل الآخرين ليحيا ، صنع من جماجمهم حجارة لبناء رفاهيته ، وزخرف أبنيته بدمائهم .

واليوم ، ونحن نسعى إلى التنمية بكل طاقاتنا ، هل يلزمنا أن نقلد هذا النموذج ، ونتخذه إماماً ؟

إن واجبنا أن نضعه على مشرحة التحليل ، لنعرف مكوّناته ، ونحلله إلى عناصره الأولية ، فنأخذ منه ما ثبت نفعه ، ونتجنب ما ثبت ضرره وإثمه ، أو ما كان إثمه أكبر من نفعه . وأن نُحوِّر فيه ونُعدِّل حتى يلائمنا .

إن التنمية التى نتبناها هى التنمية بمفهومها الشامل ، الذى يعتبر الإنسان هدف التنمية ووسيلتها فى آنٍ واحد ، والذى يهدف إلى تنمية الإنسان كله : جسمه ، وعقله ، وعاطفته ، وروحه وضميره . الإنسان فرداً ، والإنسان مجتمعاً ، الإنسان طفلاً ، والإنسان شاباً والإنسان شيخاً . الإنسان رجلاً ، والإنسان امرأة . الإنسان الأبيض ، والإنسان الأسود ، والإنسان الملوّن .

* * *

٢ - العلم والتكنولوچيا :

إن أهم مقتضيات المعاصرة ، وبعبارة أخرى : أهم ما نأخذه من « العصر » هو : العلم وتطبيقاته « التكنولوچية » ، العلم بمعناه الحديث ، القائم على الملاحظة والتجريب . العلم الطبيعى والرياضى ، إلى آخر مدىً وصلا إليه . العلم الذى أوصل الإنسان إلى غزو الفضاء ، وصنع الحاسوب (الكومبيوتر) والهندسة الوراثية ، التى انتهت إلى مرحلة يعبرون عنها بـ « الثورة البيولوچية » .

إننا إذا قلنا : إن أصالتنا الإسلامية والعربية لا تمنعنا من أخذ هذا العلم والاقتباس منه والانتفاع به ، نكون قد ظلمنا أصالتنا .

فالواقع أنها توجب علينا ذلك إيجاباً ، من أكثر من جهة :

١ - من جهة أن من فروض الكفاية على الأمة - التى لا خلاف عليها - أن تتقن كل علم تحتاج إليه فى دينها أو دنياها ، وأن يكون لديها من المتخصصين والخبراء فيه ما يقوم بكفايتها ، ويغنيها عن غيرها .

وفرض الكفاية هو ما يجب على الأمة فى مجموعها وجوباً تضامنياً ، بحيث إذا قام به عدد كافٍ سقط الإثم عن سائر الأمة ، وإلا أثمت كلها .

٢ - ومن جهة أن الأمة مطالَبة بأن تكون فى مكان الأستاذية للأمم ، التى يعبر عنها القرآن بـ « الشهادة على الناس » ، وذلك فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (١) .

وهذه المكانة التى بوأها القرآن للأمة توجب عليها أن تتفوق فى كل ما يعزز مكانتها ، ويعينها على أداء رسالتها الحضارية ، وفى مقدمة ذلك العلم الذى جعله الله المرشح الأول لاستحقاق الإنسان منصب الخلافة فى الأرض كما تدل على ذلك آيات : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا

---

(١) البقرة : ١٤٣

أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ (١) .

فلا يجوز للأمة المسلمة أن تظل عالة على غيرها ، وأن ترضى بالبقاء فى ذيل القافلة البَشرية وموضعها فى الطليعة .

٣ - ومن جهة أن الأمة يجب أن تكون سيدة فى أرضها ، لا سلطان لأحد عليها ، فهى بالإسلام تعلو ولا تُعلى ، وتحكم ولا تُحكم . ويجب لذلك أن تُعدَّ لأعدائها القائمين والمحتملين ما استطاعت من قوة ، دفاعاً عن حرماتها ، وذوداً عن دعوتها ، وتمكيناً لحضارتها ، وإرهاباً لعدو الله وعدوها .

وإذا كان العلم والتكنولوچيا التى هى ثمرته وسيلة لازمة لذلك ، كان من الواجب الحتمى شرعاً اكتساب هذا العلم وكل ما يؤهل له ويعين عليه ، تطبيقاً للقاعدة الشرعية المتفق عليها ، وهى : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

٤ - ومن جهة رابعة : أن العلم الحديث ييسر على الإنسان كثيراً من أمور حياته ، ويساعده على أداء واجباته ، فى وقت أسرع ، وبجهد أقل ، وبصورة أفضل ، ويسهل له أشياء لم يكن يحلم بها من قبل مجرد حلم .

ولا يجوز أن يحرم المجتمع المسلم ، ولا الفرد المسلم من ثمرات هذا كله ، بل هو أولى الناس بالاستفادة من هذا العلم ، الذى يعتبره نعمة من الله الذى: ﴿ علَّمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) . والذى يجب أن يشكر الله تعالى عليها ، وشكر النعمة باستخدامها فيما خلقت له ، مما يحبه الله تعالى ويرضاه ، لا مما يكرهه ويسخطه .

ثم إن الله تعالى يريد بالناس اليُسر ، ولا يريد بهم العُسر ، والشريعة تأمر

---

(١) البقرة : ٣ - ٣٣ (٢) العلق : ٥

بتحصيل المصالح الخالصة أو الراجحة ، فإذا ثبت أن وراء هذا العلم تيسيراً ومصلحة فهو مطلوب شرعاً .

وقد استخدم المسلمون هذا العلم فى طباعة المصاحف والكتب الدينية ، ونشر العلم وتعليم الدين ، وتسهيل أداء عباداته ، مثل فريضة الحج ، وغيرها . واليوم يجتهدون فى استخدام « الكومبيوتر » فى خدمة السُنَّة النبوية والعلوم الشرعية واللغوية ، فهو عون على الدين والدنيا .

٥ - ومن جهة خامسة : أن هذا العلم الذى نأخذه اليوم من الغرب ، قد أخذه الغرب بالأمس منا ، من حضارتنا . وهذا ما شهد به الغربيون أنفسهم ، فهو إذن بضاعتنا تُرَد إلينا ، ولسنا بالغرباء عنه ، ولا الدخلاء عليه .

صحيح أن العلم المعاصر لم يعد هو العلم الذى اقتبسه الغرب منا قديماً ، فقد خطا خطوات واسعة ، وقفز قفزات هائلة ، من عصر الصناعة الأول إلى عصر الصناعة الثانى ، إلى ما نراه اليوم من تكنولوچيا متطورة ، ومن نتائج بعيدة المدى ، ومن طموحات تكاد تغيّر وجه الحياة . ولكن أصول هذا المنهج العقلية والعلمية أصول إسلامية ، وقد قيل : « الفضل للمبتدى ، وإن أحسن المقتدى » .

ومهما يكن الأمر فى أصل هذا العلم ومصدره ، فهو الآن فى صورته الأخيرة علم غربى ، شئنا أم أبينا ، وهو كذلك أحد مستلزمات العصر ، ولا معاصرة لنا إذا لم نعبّه عبّاً ، لا يكفينا منه مجرد الارتشاف ، ، لا بد من الوصول إلى درجة « الإحسان » فى هذا العلم ، فإن الله كتب الإحسان على كل شىء .

* *

● شراء التكنولوچيا :

ولا ينفعنا هنا ما زعمه بعضهم يوماً : آننا يمكننا بأموالنا - التى هيأها لنا النفط وغيره - أن نشترى التكنولوچيا من أى مكان فى العالَم ، ونستخدمها

كما نريد ، ونوظفها فى إنهاض أوطاننا ، وتطوير أوضاعنا ، وتحقيق طموحاتنا التنموية .

فالواقع أن التكنولوچيا التى تُشترى لا تُطوِّر المجتمع ، ولا تنقله إلى العصر ؛ بل تساعده على الاستهلاك لا الإنتاج ، والتقليد لا الإبداع ، وتغيير المظهر لا الجوهر ، والمبنى لا المعنى .

والذين يبيعوننا التكنولوچيا ليسوا بلهاء ، بحيث يبيعوننا ما يجعلنا نستغنى عنهم ؛ إنما يعطوننا البعض لا الكل ، والفرع لا الأصل ، حتى نظل مربوطين بهم ، مشدودين إليهم ، مفتقرين إلى عونهم .

ولا يزال الناس يذكرون فى الخليج تلك المدينة الخليجية الكبرى التى تعطلت فيها إحدى محطات الكهرباء الرئيسة ، فعاش نحو ثلث سكانها محرومين من كل آثار الكهرباء فى الحياة الحديثة : لا ثلاجة ولا مكيف ولا مروحة ، ولا مصعد ولا تلفاز ، ولا .. ولا .. حتى أرسل المصنع أو الشركة التى اشتريت منها المحطة الخواجة المهندس الذى أصلحها !

إن التكنولوچيا المطلوبة هى التى تُستنبت فى أرضنا ، وتنمو بنمونا ، وتتفاعل مع واقعنا ، وتمدها عقول أبنائنا ، وتحملها سواعدهم . ونحن لها أهل إذا استبانت الوجهة ، واتضح السبيل . والدين أعظم ما يعيننا على ذلك إذا أحسنا فقهه ، وعملنا بتوجيهه .

* *

• لا تناقض بين النقل والعقل :

وما أوهمه بعض الكُتَّاب من أن البيئة الدينية لا تهيىء لمناخ علمى مزدهر ، بافتراض وجود صراع بين النقل والعقل ، أو بين النص الإلَهى والاجتهاد الإنسانى ، غير صحيح ، بل ترده النصوص ، ويرده التاريخ ، ويرده الواقع ؛ فالعقل هو المخاطَب بنص الشارع ، والمكلَّف بفهمه والعمل به ، والاجتهاد

فى دلالته ، وملء الفراغ فيما لا نص فيه . وقد ترك النقل - أو الوحى - للعقل شؤون الكون والحياة كلها يصول فيها ويجول ، ولم يحجر عليه فى ذلك بل أمره وحرَّضه ودعاه .

والمحققون من علماء الأمة اعتبروا الوحى والعقل هاديين للخلق إلى الحق . يقول الإمام الراغب الأصفهانى فى كتابه القيم « الذريعة إلى مكارم الشريعة » :

« لله عَزَّ وجَلَّ إلى خلقه رسولان ، أحدهما : من الباطن وهو العقل ، والثانى : من الظاهر وهو الرسول ، ولا سبيل لأحد إلى الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن ، فالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر ، ولولاه لما كانت تلزم الحُجَّة بقوله ، ولهذا أحال الله مَن يشكك فى وحدانيته وصحة نبوة أنبيائه على العقل ، فأمره بأن يفزع إليه فى معرفة صحتها . فالعقل قائد والدين مدد ، ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقياً ، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائراً ، واجتماعهما كما قال الله تعالى : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ (١) .

ويؤكد ذلك معاصر الراغب الإمام أبو حامد الغزالى فى عدد من كتبه . ففى مقدمة « المستصفى » يعتبر العقل القاضى الذى لا يُعْزَل ولا يبدَّل ، والشرع الشاهد المزكِّى المعدّل ، ويجعل العقل مركب الديانة وحامل الأمانة (٢) .

وفى « الإحياء » يقرر أن لا غنى بالشرع عن العقل ، ولا بالعقل عن الشرع « فإن العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدوية ، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء » ، وينكر على مَن يظنّ أن العلوم

---

(١) النور : ٣٥ ، وانظر : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٠٧ بتحقيق د . أبو اليزيد العجمى ، طبع دار الصحوة بالقاهرة .

(٢) المستصفى : ١/٣

العقلية مناقضة للعلوم الشرعية ، وأن الجمع بينهما غير ممكن . وهو فى رأيه ظن صادر عن عمىً فى عين البصيرة [1] .

وفى « الاقتصاد فى الاعتقاد » يصف عصابة الحق وأهل السُنَّة أنهم الذين وفَّقوا بين مقتضيات الشرائع ، وموجبات العقول ، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول [2] .

وفى كتاب « معارج القدس » الذى يُنسب للغزالى نقرأ هذه الكلمات :

« اعلم أن العقل لن يهتدى إلا بالشرع ، والشرع لم يتبين إلا بالعقل . فالعقل كالأسّ والشرع كالبناء ، ولن يغنى أسّ ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسّ .

وأيضاً ، فالعقل كالبصر ، والشرع كالشعاع ، ولن يغنى البصر ما يكن شعاع من خارج ، ولن يغنى الشعاع ما لم يكن بصر ، فالشرع عقل من خارج ، والعقل شرع من داخل ، وهما متعاضدان ، بل متحدان [3] .

ولا غرو أن وجدنا فى تاريخ حضارتنا كثيراً ممن نبغوا فى المجالين : العلوم الشرعية ، والعلوم العقلية . ومن هذه العلوم العقلية : العلوم الطبيعية ، والرياضية والطبية .

فجابر بن حيان يسمى جابراً الصوفى .

والخوارزمى مبتكر علم الجبر ، إنما وصل إليه ، وهو يؤلف رسالة فى فقه الوصايا والفرائض .

---

(١) الإحياء : ٣/١٧ ، طبع دار المعرفة ، بيروت . ويلاحظ أن الراغب فى « الذريعة » يرى الشرعيات كالأغذية ، والمعقولات كالأدوية ، باعتبار آخر ص ٢٠٨

(٢) من مقدمة كتاب « الاقتصاد فى الاعتقاد » للغزالى .

(٣) معارج القدس ص ٥٧ ، طبع دار الآفاق الجديدة ، بيروت . وانظر : تعليقنا عليه فى كتابنا « الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه » ص ٤١

وابن رشد الحفيد صاحب كتاب « الكليات » فى الطب الذى تتلمذت عليه آوروبا عدة قرون ، هو نفسه صاحب كتاب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » فى الفقه المقارن ، وهو قاضٍ شرعى من فقهاء المالكية .

والفخرِ الرازى صاحب « التفسير الكبير » والكتب الشهيرة فى علم أصول الفقه وعلم أصول الدين ، كان من أشهر الأطباء فى زمنه ، ولم تكن شهرته فى الطب تقل عن شهرته فى علوم الدين .

وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، وأول مَن أشار إلى الحويصلات الرئوية والشرايين التاجية ، هو أحد فقهاء الشافعية الذين ترجم لهم ابن السبكى فى « طبقاته » ، وترجم لهم الذهبى وغيره من مؤرخى الأعلام فى الإسلام [1] .

* *

● استخدام أسلوب الإحصاء :

وإذا كان عصرنا يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء من أبرز دلائل الطريقة العلمية فى معالجة الأمور ، وهو فارق مميِّز بين العلميين والعشوائيين ، أو الغوغائيين من الناس ، فإن النبى ﷺ قد بادر إلى الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة .

فقد روى البخارى ومسلم عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، فقال : [أحصوا لى كم يلفظ الإسلام] .

وفى رواية للبخارى أنه قال : [اكتبوا لى مَن يلفظ بالإسلام من الناس] قال حذيفة : فكتبنا ألفاً وخمسمائه رجل . . . [2] الحديث .

---

(١) انظر فى تراجم هؤلاء : الأعلام للزركلى .

(٢) انظر جامع الأصول : ١٠/ ١٠٠ ، حديث رقم (٧٥٧٠) ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط .

فهو إحصاء كتابى يراد تدوينه وتثبيته ، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البَشرية الضاربة ، التى يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به ، ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط ، أى القادرين على القتال .

والإحصاء الذى تم فى عهد مبكر من حياة الدولة المسلمة ، وتم بأمر من الرسول نفسه فى سهولة ويسر ، يرينا إلى أىّ حد يرحب الإسلام باستخدام الوسائل العلمية .

وفى مقابل هذا نجد فى « العهد القديم » : أن أحد أنبياء بنى إسرائيل أراد أن يعمل لهم إحصاء فنزلت عقوبة سماوية بهم ! كأنما « الإحصاء » يمثل تحدياً للقدر أو للإرادة الإلَهية . وهذا ما استنبط منه الفيلسوف المعاصر الشهير « برتراند راسل » أن تعاليم « التوراة » ، والكتاب المقدس لا تتيح مناخاً مناسباً لإنشاء عقلية علمية .

* *

● التخطيط :

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية فالتخطيط كذلك ، بل هو أوضح دلالةً عليها ، والتخطيط إنما يعتمد على الإحصاء ، ويراد بالتخطيط وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل ، وتحقيق الأهداف المنشودة .

ومِنَ الناس مَنْ يتصوَّرون أو يصوِّرون الدين فى موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمى للمستقبل . وهذا من أثر الفكرة القديمة التى جعلت العلم مقابلاً للإيمان ، فهما ضدَّان لا يجتمعان ، أو خطَّان متوازيان لا يلتقيان .

والحقيقة أن فكرة الدين فى جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل . ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده ، وبعبارة أخرى من حياته لموته ، ومن دنياه لآخرته ، ولا بد له أن يخطط حياته ، ويضع لنفسه - فى ضوء الوحى- منهاجاً يوصله إلى الغاية ، وهى رضوان الله ومثوبته .

وفى القرآن الكريم قصة جعلها الله عبرة لأولى الألباب ، وهى قصة نبى الله يوسف عليه السلام ، وفيها يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط للاقتصاد الزراعى لمدة خمسة عشر عاماً ، لمواجهة أزمة غذائية عامة . عرف يوسف - بما ألهمه الله ، وعلّمه من تأويل الأحاديث - أنها ستصيب المنطقة كلها ، وقد اقترح يوسف عيه السلام مشروع الخطة . ووُكل إليه تنفيذُها ، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها ، : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِه إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ (١) .

ويظن آخرون أن التخطيط للغد ينافى التوكل على الله ، أو الإيمان بقضائه ، وقدره ؛ ولهذا يستبعدون كل الاستبعاد أن يقبل الدين فكرة التخطيط ، فضلاً عن أن يوجه إليه ، أو يحث عليه .

والحق أن الذى يتعمق فى دراسة كتاب الله ، وسُنَّة رسوله يتبين له أنهما يرفضان الارتجال والعشوائية ، وترك الأمور تجرى فى أعنتها بغير ضابط ، ولا رابط ولا نظام . وبين الرسول ﷺ أن التوكل على الله لا يعنى اطّراح الأسباب أو إغفال السنن ، التى أقام الله عليها نظام هذا الوجود ، ولا يكاد مسلم يجهل قصة الأعرابى الذى جاء إلى النبى ﷺ ، وترك ناقته أمام المسجد قائلاً : يا رسول الله ، أأعقل ناقتى وأتوكل أم أطلقها وأتوكل ؟ فقال له : [اعقلها وتوكّل] (٢) .

---

(١) يوسف : ٤٧ - ٤٩

(٢) رواه الترمذى من حديث أنس ، وقال : غريب - أى ضعيف ، وأنكره يحيى القطان ، لكن أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث عمرو بن أمية الضمرى ، وإسناده - كما قال الزركشى : صحيح - ورواه عنه أيضاً ابن خزيمة فى صحيحه بلفظ : =

وقال الإمام الطبرى يرد على مَن زعم أن تعاطى الأسباب يؤثر فى كمال التوكل : الحق أن مَن وثق بالله ، وأيقن أن قضاءه عليه ماضٍ ، لم يقدح فى توكله تعاطيه الأسباب ؛ اتباعاً لسُنَّته وسُنَّة رسوله ، فقد ظاهر - صلى الله عليه وسلم - بين درعين ، ولبس على رأسه المغفر ، وأقعد الرماة على فم الشِّعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن فى الهجرة إلى الحبشة ، وإلى المدينة ، وهاجر هو ، وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء ، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك (١) .

ومَن قرأ سيرته عليه الصلاة والسلام ، وجد أنه كان يُعِد لكل أمر عُدَّته ، ويهيىء له أسبابه وأهبته ، آخذاً حذره ، مقدِّراً كافة الاحتمالات ، واضعاً ما أمكنه من الاحتياطات مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله تعالى .

فهو حين أمر أصحابه - بعد أن اشتد إيذاء قريش لهم - بالهجرة إلى الحبشة ، لم يكن هذا الأمر اعتباطاً ، أو رمية من غير رامٍ ، بل كان نتيجة معرفة بالظروف الجغرافية ، والدينية والسياسية للحبشة فى ذلك الوقت .

فلم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يأمرهم بالهجرة إلى مكان مهماً بَعُد ، فى شبه جزيرة العرب ، فإن قريشاً - بما لها من نفوذ دينى وأدبى - تستطيع أن تلاحقهم .

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أنْ يذهبوا إلى بلد تحت سيطرة الفُرْس أو الروم ، حيث يحكمها أباطرة لا يقبلون مثل هذه الدعوة الجديدة .

= « قيِّدها وتوكل » ، وإسناده - كما قال الزين العراقى : جيد - انظر : فيض القدير ص ٧ ، حديث رقم (١١٩١) ، وانظر الحديث وتخريجه فى « الإحسان » - الجزء الثانى - حديث رقم (٧٣١) ، طبع الرسالة .

(١) نقله الشوكانى فى نيل الأوطار : ٩/ ٩٢ ، طبع دار الجبل - بيروت .

ولم يكن من الحكمة ولا من حسن الخطة أن يذهبوا بعيداً إلى بلاد مثل الهند والصين ، حيث تنقطع أخبارهم ، وتكون الهجرة مهلكة لهم .

ولقد كانت الحبشة هى المكان المناسب جغرافياً ، فهو ليس جدَّ بغيد ، ولا جد قريب ، بل بينه وبين قريش بحر .

وكانت الحبشة هى المكان المناسب دينياً ، فقد كانوا أهل كتاب من النصارى الذين يُعدّون أقرب مَوَدَّةً للمسلمين .

وكانت الحبشة هى المكان المناسب سياسياً ، فقد كان يحكمها رجل اشتهر بالعدل والنَّصَفَة ، ولهذا قال الرسول لأصحابه : [إن بها ملكاً أرجو ألا تُظلموا عنده] .

وهذا يدلنا على أن الرسول وأصحابه لم يكونوا فى عزلة عن العالَم من حولهم ، رغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها وبعض .

ويدل على ذلك أيضاً موقفهم من حرب الفُرْس والروم ، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين فى هذا ، مما نزلت فيه أوائل سورة الروم : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ (1) .

وهكذا . . فقد كانوا – وهم فى فجر الدعوة ورغم الضعف والاضطهاد – على صلة بالصراع العالمى بين الدولتين العظميين فى ذلك العصر ، أو المعسكرين الكبيرين : الشرقى والغربى .

وأوضح من ذلك موقفه صلى الله عليه وسلم فى هجرته إلى المدينة ، ففيها يتجلى التخطيط العلمى ، والتوكل الإيمانى جنباً إلى جنب .

فلقد أعدّ عليه الصلاة والسلام من جانبه كل ما يستطيع البَشر إعداده من الوسائل والاحتياطات والمعينات .

---

(1) الروم : ٢ – ٣

ولقد اطمأن إلى المهجر الذى سينتقل إليه ، بعد أن بايع المؤمنين من الأوس والخزرج بيعة العقبة الأولى والثانية ، واشترط لنفسه أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم .

واطمأن إلى الرفيق الذى سيصحبه فى رحلته الجاهدة بما فيها من أخطار ، وما تحمله من مفاجآت ، ولم يكن هناك أفضل من أبى بكر رفيقاً .

واطمأن إلى الفدائى الذى سيبيت مكانه ، مُعرِّضاً نفسه لاحتمالات الخطر ، وغدرات المتربصين ، ولم يكن ثَمَّ أفضل من علىٍّ ابن عمه أبى طالب فارس الإسلام لهذه المهمة .

ورتب الدليل الخِرِّيت الذى يدله على الطريق ، وما فيه من منعطفات ومخابىء يمكن أن تضلل عنه أعين الطالبين ، فكان مشركاً أميناً ، هو عبد الله ابن أريقط . وهو ما أخذ منه الفقهاء جواز الاستعانة بالخبرة الفنية غير الإسلامية ، مع الاطمئنان والأمان .

وهيأ الرواحل التى سيمتطيها هو وصاحبه ودليله فى سفرهم الطويل ، واتفقوا على المكان والموعد الذى يستقلون به الركائب .

وتخيّر المخبأ الذى يختفى فيه أياماً معدودة ، حتى تخف حدة الطلب ، ويتملك القوم اليأس ، واختاره فى غير طريق المدينة ، زيادة فى التعمية على القوم فكان غار « ثور » .

وأعد فريق الخدمة الذى يأتى بالزاد ، والأنباء ، خلال أيام الاختفاء ، فكانت أسماء وعبد الله بن أبى بكر ، ومن بعدهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، يأتى بغنمه فيحلبون منها ، ويعفّى على آثار أسماء وعبد الله .

خطة محكمة الحلقات ، متقنة التدبير ، ولم تُترك فيها فجوة دون أن تُملأ ، ولا ثُغرة دون أن تُسد ، ووضع فيها كل جندى فى دوره المناسب

لظروفه وقدراته ، فدور أبى بكر ، غير دور علىّ ، غير دور أسماء ، وكل فى موقعه الصحيح .

ومع هذا الإحكام الدقيق ، كادت الخطة تخفق ، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الغار ، ويقفوا على بابه ، وكان يكفى لكشف الأمر وإفساد الخطة ، أن ينظر أحد القوم تحت قدميه ، فيرى الرسول وصاحبه فى الغار ، وهذا ما خشيه أبو بكر ، وصرّح به للرسول ﷺ حين قال : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فقال له كلمته المؤمنة الواثقة : [ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما] ؟ ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ [1] .

وهنا تجلى دور « التوكل » الحق ، فبعد أن يبذل الإنسان ما فى وسعه ، ويتخذ من الأسباب والخطط ما يقدر عليه ، يدع ما لا يقدر عليه من مفاجآت القدر ، لله وحده . وهنا تقع ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ موقعها وتؤتى أُكلها [2] .

* *

● **واقعنا المرّ لا يمثل أصالة ولا معاصرة :**

على أن واقعنا اليوم يؤكد أننا نعيش خارج عصرنا ، فلا نزال حتى الآن مستوردين لمنتجات الغرب ، نشترى أغلى الأجهزة وأفخر السيارات المشتملة على كل الكماليات - التى قد تُصنع لنا خاصة وبطلب منا - ونركب أحدث الطائرات ، ولكنَّا لا نصنع شيئاً من هذا كله . لم نصنع محركاً (موتور) لطيارة ولا سيارة ولو صغيرة . ولذلك لو كفّ الآخرون أيديهم عنا ، ما تحرّك لنا مصنع ، ولا حلّقت بنا طائرة ، ولا سارت بنا سيارة .

فى بعض بلاد الخليج توقفت الحياة فى نصف المدينة الكبيرة لأن إحدى

---

(١) التوبة : ٤٠

(٢) انظر كتابنا « الرسول والعلم » ص ٤٣ - ٤٨ ط.الرسالة والصحوة .

ماكينات الكهرباء الكبرى توقفت ، ولا يوجد مَن يصلحها ؛ لا بد من خبير من بلادها التى صنعتها ، ومن المصنع الذى صدَّرها !

التكنولوچيا لا تُشترى من الخارج ، وإنما تُصنع فى الداخل .

قلت فى عدد من كتبى ولا أزال أقول وأكرر : إن أمة « سورة الحديد » لم تتعلم بعدُ صناعة الحديد . فقد قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (1) .

وقوله : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ إشارة إلى الصناعات الحربية ، وقوله : ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ . إشارة إلى الصناعات المدنية . ونحن للأسف لم نتقن أيًا منهما .

لقد صنع الغرب « الكومبيوتر » وطوَّر أجيالاً منه ، جيلاً بعد جيل ، حتى وصل اليوم إلى ما وصل إليه من مكنة وقدرة وسرعة ، مع صغر الحجم وقلة النفقات ، ولا يزال يبدع ويطوّر ويحسّن . ونحن العرب إلى اليوم مختلفون فى مجرد تسميته : أهو العقل الإلكترونى ، أم الدماغ الإلكترونى ، أم الحاسب الآلى ، أم الحسَّابة أم المحساب أم الحاسوب ؟؟!!

لقد ذكرت فى كتابى « الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى » الشروط اللازمة للخروج من سجن التخلف ، والدخول فى عصر التكنولوچيا المتقدمة . وهى شروط بعضها يتعلق بالأصالة ، وبعضها يتعلق بالمعاصرة ، وبعضها يتعلق بكلتيهما .

ولا أود أن أعيد ما كتبته ، ولكن أنبه عليه للرجوع إليه فى موضعه ، إن كنا جادين حقاً ، أن ندخل العصر ، ونلحق بالركب ، ونسد الفجوة بيننا وبين عالَم اليوم .

---

(1) الحديد : ٢٥

إن الذى نحن فيه لا يمثّل أصالة ، ولا يمثّل معاصرة . إنه التيه والضياع .

إن أصالتنا الإسلامية والعربية لا يُتصور بحال أن تكون حائلاً بيننا وبين التقدم العلمى والتكنولوجى ، كما توهم كتابات بعض « المتطرفين » العلمانيين ، الذين يلهثون جاهدين للبحث عن نقطة ضعف فيما يكتبه بعض الإسلاميين . فإذا عثر على ذلك فى كتاب مغمور ، أو مقال فى صحيفة أو نحو ذلك ، طار به كل مطار ، واتخذ منه حُجَّة لتوهين الموْقف الإسلامى كله .

لقد زعم مَن زعم مِن هؤلاء : أن الإسلاميين يعتمدون - فى بيان موقفهم من العلم - على فكرة الإعجاز العلمى فى القرآن ، ويتمحلون لذلك تمحلات كثيراً ما تكون متعسفة وممجوجة .

وتصوير الموقف الإسلامى بمثل هذا غير عادل ، وغير صحيح . فقد ذكرنا من الوجوه الموجبة لأخذ العلم المعاصر من أى وعاء كان ، ما فيه الكفاية . ونزيد على ذلك أن الإسلام يدعو إلى العلم بأكثر من أسلوب فى قرآنه وسُنَّته ، وينشىء « العقلية العلمية » التى ترفض الخرافات والأوهام والعواطف ، وتطالب بالنظر والتفكير والتدبر ، وتنكر التقليد والجمود على ما كان عليه الآباء ، أو السادة الكبراء ، وتحكّم البرهان والدليل فى كل شىء : الدليل المنطقى العقلى فى العقديات والعقليات ، ودليل المشاهدة فى الحسيات والتجريبيات ، والتوثيق النقلى فى المسموعات والمرويات .

وهذا ما فصّلناه فى كتبنا ، وأقمنا عليه الأدلة من كتاب الله تعالى ، ومن سُنَّة رسوله ﷺ (١) .

إن أصالتنا الإسلامية هى التى تهيىء لنا أفضل مناخ نفسى وعقلى ، يمكن

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا « الرسول والعلم » ، فصل « الرسول والعلم التجريبى » ، واقرأ تحت عنوان « علمية لا علمانية » من كتابنا « الإسلام والعلمانية » .

أن تزدهر فيه نهضة علمية تكنولوچية راسخة ، يقوم عليها مجتمع يرى هذه النهضة عبادة وفريضة وضرورة . وهذا المناخ هو الذى ترعرعت فى ظلاله حضارتنا العربية الإسلامية ، التى مزجت بين الدين والدنيا ، وجمعت بين العلم والإيمان ، ووصلت الإبداع المادى بالسمو الروحى والخُلُقى .

وهذا ما يجب أن نحرص عليه حين نسعى للحصول على علم العصر وتكنولوچيا العصر : أن نربط ذلك بقيم الإيمان والدين والأخلاق ، حتى لا يكون العلم معول دمار ، بل أداة عمار ، وألا يعين الإنسان على عمارة دنياه بخراب آخرته ، وإشباع شهواته البهيمية ، بجوع روحه الإنسانية .

* * *

٣ - النظرة المستقبلية :

ومن مقتضيات المعاصرة ألا يستسلم الإنسان لظروف حاضره ، بل يتطلع دائماً إلى المستقبل . ومهما يضغط عليه الواقع بهمومه الآنيّة ، ومشكلاته اليومية ، وجراحه المستمرة فى النزيف ، فإنه يرنو إلى الغد ، ويستشرف للمستقبل ، يعدّ له العُدَّة ، ويأخذ له الحيطة ، محاولاً أن يسد ما يتوقع من ثُغرات ، وأن يعالج ما يطرأ من آفات ، وأن يغرس نواة اليوم لتصبح نخلة أو شجرة زيتون بعد سنوات ، وأن يفكر ماذا سيواجه الأبناء والأحفاد فى الأجيال القادمة ، وما الأخطار التى ترتقبهم ؟ والآمال التى يرتقبونها ؟ وهل فى الإمكان أن ندخر من يومنا لغدنا ، أو لغد ذرارينا من بعدنا ، وأن نقيهم بعض ما أصابنا من محن ؟ وما غشينا من فتن ؟ وما حلّ بنا من كوارث لم نأخذ لها الأهبة ؟

وهل يمكن للإنسان أن يطمح إلى مستقبل تغلب فيه الآمالُ يأسَ اليائسين ، وتجف فيه دموع البائسين ، وينتصر فيه الخير على الشر ، والعدل على الظلم ، والرخاء على الفقر ، والعلم على الجهل ، والتسامح على التعصب ؟

إن من سمات عصرنا التطلع إلى المستقبل ومحاولة استشفافه ، أو توقع

ما يمكن أن يحدث فيه ، لا عن طريق الكهانة والتنجيم ، بل عن طريق الدراسة والرصد ، وبناء النتائج على المقدمات ، والمسببات على الأسباب ، كما تفعل « الأرصاد الجوية » بالنسبة للرياح والأمطار والحرارة والبرودة .

يقول الدكتور المهدى المنجرة وهو أحد المهتمين البارزين من العرب بهذا اللون من الدراسة :

« إن الدراسات الاستقبالية تُعَد ظاهرة حديثة النشأة تعود إلى نهاية الحرب العالَمية الثانية ، وأول مَن باشرها مؤسسة « راند » بناء على طلب البنتاجون فى عام ١٩٤٧ ، ولم تشهد انطلاقتها الحقيقية إلا مع نهاية الستينات » .

وقد تتبع زكى نجيب محمود فى مقاله « المستقبل المحسوب » بدايات الاهتمام بهذه الدراسات منذ مطلع القرن العشرين . وتحدث قسطنطين زريق فى كتابه « نحن والمستقبل » عن هذا النمط العلمى الريادى المعاصر فى الاهتمام المستقبلى ، الذى يتميز بصفته العلمية ، وبتمسكه بالمنطق الاختبارى ، وبأنه جهد جَماعى رآه ينتسب إلى عالَمنا المعاصر .

ويعلق الدكتور أحمد صدقى الدجانى فى بحثه القيم : « دراسة المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة » (١) بقوله :

واضح أن ظهور الدراسة المستقبلية بمعناها الحديث وثيق الصلة بثورة العلم التقنى التى تفجرت فى عالَمنا المعاصر هذا ، وأثمرت ثورة فى الاتصال وثورة فى المعلومات ، وأحدثت تحولات وتحولات . وقد أورد « هوج ستيوارت » فى كتابه « تذكّر المستقبل » تسعة تحولات تحدَّث عنها « چون نيبسبت » عام ١٩٨٢ ، وسماها توجهات عظمى « تحول من مجتمع صناعى إلى مجتمع معلوماتى ، انتقال من انقياد للتقنية إلى استجابة إنسانية لها ،

---

(١) نشرته مجلة « المسلم المعاصر » فى عددها الثانى والستين : نوفمبر ، ديسمبر سنة ١٩٩١ ، يناير سنة ١٩٩٢

انتقال من ضيق الاقتصاد القومى إلى شمول الاقتصاد العالَمى ، تحول من المركزية إلى اللامركزية ، تزايد الاعتماد على الذات فى مقابل الاعتماد على المؤسسات ، التحول من ديموقراطية الإنابة إلى ديموقراطية المشاركة ، تحول من نظام هرمى إلى نظام شبكى ، انتقال من مناطق صناعية إلى مجتمعات جديدة ، تحول من مجتمع خيارات محدودة إلى خيارات عديدة » .

ولما كانت ثورة العلم التقنى قد تفجرت فى الغرب ، فإن ظهور الدراسة المستقبلية بمعناها الحديث بدأ هناك . وقد أولتها عناية خاصة المؤسسات العسكرية والشركات متعددة الجنسيات عابرة القارات . وهكذا بدت الصلة وثيقة بين الدراسات المستقبلية والدراسات الاستراتيجية .

كان طبيعياً أن يجرى بحث عن اسم يُطلق على هذه الدراسة المستقبلية التى ظهرت بمعناها الحديث ، وأن يجتهد المشتغلون بها فيطلقوا عليها هذا الاسم أو ذاك ؛ وهكذا ظهر اسم « المستقبلية » ، ولم يلبث « جاستون بيرجر » الفرنسى أن سماها عام ١٩٦٠ « علم الريادة » . ثم استخدم « أوسيب فليشتم » الألماني عام ١٩٦٦ اسم « علم المستقبل » فى كتابه « علم التاريخ وعلم المستقبل » ، وهناك مَن سماها « علم حساب المستقبل » .

وإن كان الدكتور الدجانى يتحفظ على اعتبار ذلك علماً ، بل يراه استشرافاً وتشوفاً ورؤية ؛ **فهل يتسع صدر الإسلام - عقيدة وشريعة وفكراً - لهذا النوع من التوجه المستقبلى ؟ أو يضيق به ويغلق الباب دونه ؟**

إن كثيراً ممن لم يتعمقوا فى فهم الإسلام يحسبون أن الدين عامة - والإسلام خاصة - لا يرحب بالنظرة المستقبلية ، التى تستوجب استشراف الغد ، والتخطيط له ، والإعداد لما عسى أن تتمخض عنه الليالى والأيام .

وذلك لأن الدين - فى نظرهم - يربط الإنسان بماضيه وتراثه ، الذى غالباً ما يُنظر إليه نظرة فيها لون من « التقديس » ، الذى يحيله إلى « قفص » يحول دون حركته وانطلاقه ، وإن كان فى نظره قفصاً من ذهب ! أما المستقبل

فهو بيد الله ، وهو غيب لا يعلمه إلا الله . ولا دخل للإنسان فى توجيهه . وإنما يفرضه عليه القدر الأعلى من فوق ، دون أن يكون له كسب أو اختيار .

هكذا يفكر بعض المتدينين ، وخصوصاً العوام ، وأشباه العوام . وأقصد بأشباه العوام كثيراً من الجامعيين ، وكبار المتعلمين ، الذين لا يتميزون كثيراً فى أفكارهم الدينية عن العوام والأميين ، وإن كانوا فى تخصصاتهم من المرموقين ، الذين قد يُشار إليهم بالبنان !

وهذا اللون من التفكير هو الذى يعتمد عليه جماعة العلمانيين فى تصوير النظرة الإسلامية للمستقبل .

ومَن أراد أن يعرف النظرة الإسلامية للمستقبل فليعرفها من القرآن الكريم والسنَّة النبوية . كما أوجزتُ بيان ذلك فى بعض كتبى (١) .

* *

● القرآن الكريم والمستقبل :

فالمتدبر للقرآن الكريم يجده منذ العهد المكى يوجه أنظار المسلمين إلى الغد المأمول ، والمستقبل المرتجى ، ويبيِّن لهم أن الفلك يتحرك ، والعالَم يتغير ، والأحوال تتحول ، فالمهزوم قد ينتصر ، والمنتصر قد يُهزم ، والضعيف قد يقوى ، والدوائر تدور ، سواء أكان ذلك على المستوى المحلى أم العالمى .

وعلى المسلمين أن يهيئوا أنفسهم ، ويرتبوا بيتهم لما يتمخض عنه الغد القريب أو البعيد ، فكل آتٍ قريب .

نقرأ سورة « القمر » المكيَّة ، فنجد فيها قول الله تعالى عن المشركين ،

---

(١) أولويات الحركة الإسلامية ص ١٢١ - ١٢٤ ، طبع الرسالة .

وهم أولو القوة والشوكة ، والعدد والعُدَّة : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ (١) .

ذكر ابن كثير فى تفسيره عن ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قال عمر : أىّ جمع يُهْزَم ؟ أىّ جمع يُغْلَب ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع ، وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ (٢) .

وروى البخارى عن عائشة قالت : نزل على محمد ﷺ بمكة ، وإنى لجارية ألعب : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ (٣) .

فكان المقصود بهذه الآية وأمثالها تهيئة الذهنية المسلمة ، والنفسية المسلمة ، للتغير الحتمى ، والغد المرتقب .

وعلى المستوى العالَمى نجد آيات الكتاب العزيز تتحدث عن ذلك الصراع ، التاريخى بين الدولتين العُظميين : فارس والروم - وقد كان صراعاً اهتم له الفريقان فى مكة : المسلمون والمشركون - فتبشر الآيات الجماعة المؤمنة بأن المستقبل للروم من أهل الكتاب ، على الفُرْس المجوس عُبَّاد النار ، وأنهم - وإن غُلِبوا اليوم - سيَغلِبون فى بضع سنين ، وفى هذا تقول السورة جازمة : ﴿ آلم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ ، يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

هذه الآيات الكريمة من كتاب الله تعالى تدلنا على أمرين :

١ - مدى وعى المجموعة المسلمة - على قِلّتها وضعفها المادى -

---

(١) القمر : ٤٥ - ٤٦ (٢) تفسير ابن كثير : ٢٦٦/٤ ، طبع الحلبى .
(٣) المصدر السابق . (٤) الروم : ١ - ٥

بأحداث العالَم الكبرى ، وصراع العمالقة من حولها ، وأثره عليها إيجاباً وسلباً .

٢ - تسجيل القرآن لهذه الأحداث ، وتوجيه النظر إلى عوامل التغير ، والانتقال من الواقع إلى المتوقع فى ضوء السنن .

وفى سورة المزمّل المكيّة نقرأ الآية الأخيرة من السورة التى تتضمن تخفيف الله عن نبيه ﷺ ومَن معه فى قيام الليل وقراءة القرآن ، لما ينتظرهم من مهام جسيمة فى المستقبل ، فسيواجهون أعداء يقاتلونهم ويصدونهم عن سبيل الله ، فليوفروا بعض قوتهم لهذا اللقاء المفروض عليهم .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ من ثُلُثَى اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرآنِ ، عَلِمَ أَن سَيَكُونُ منكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ (١) .

وفى القرآن آيات كثيرة تتحدث عن المستقبل ، حاملة البُشرى والأمل للأمة بظهور الدين ، والتمكين له ، واستخلاف أهله فى الأرض ، وبروز آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس حتى يتبين الحق .

﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٢) .

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ منكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ﴾ (٣) .

---

(١) المزمل : ٢٠ (٢) التوبة : ٣٣ ، والفتح : ٢٨ ، والصف : ٩

(٣) النور : ٥٥

﴿ وَقُلِ الحَمْدُ لله سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ (١) .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ (٢) .

* *

● الرسول والمستقبل :

وفى السُّنَّة النبوية أحاديث جمَّة تتحدث عن المستقبل كذلك ، وهى التى تُذكر عادة فى أبواب « الفتن » و « الملاحم » ، و « أشراط الساعة » .

والانطباع العام عند كثيرين عن هذه الأحاديث أنها توحى بالتشاؤم واليأس من المستقبل ، وانتصار الشر على الخير ، والضلال على الهدى . وهو انطباع لا يقوم على استقصاء هذه الأحاديث وتأملها ، وموازنة بعضها ببعض ، كما أنه يغفل « المبشرات » التى تحدثت عن انتصار الإسلام وانتشار دعوته ، واتساع دولته ، وعودة خلافته ، وهى جملة من الأحاديث الصحاح .

والقارىء المتأمل لسيرة رسول الله ﷺ يتبين له أنه لم يكن غافلاً عن مستقبل دعوته ، بل كان يفكر فيه ، ويخطط له ، فى حدود ما هيأ الله له من فرص ، وما آتاه من أدوات وأسباب .

ويكفى أن نقرأ عن جهده ونشاطه صلى الله عليه وسلم فى مواسم الحج التى تجمع ممثلين من جميع قبائل العرب ، وكيف كان عليه الصلاة والسلام يعرض دعوته عليهم ، ويطلب نصرتهم ، ويعدهم بوراثة ممالك كسرى وقيصر ، ليُعلم إلى أى أفق كان يرنو ببصره صلى الله عليه وسلم .

وكان الرسول الكريم - وهو فى مكة وأتباعه قليل مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس - مؤمناً بمبدأين أساسيين :

الأول : أن هذا الواقع لا بد أن يزول ، لأنه يحمل عوامل زواله ، وأن

---

(١) النمل : ٩٣ (٢) فصلت : ٥٣

البديل له هو الإسلام ، وأن ليل الجاهلية الحالك والجاثم سيعقبه فجر صادق ، وما على المؤمنين إلا أن يصمدوا ويصبروا ولا يستعجلوا الثمرة قبل إبّانها .

لما اشتد الأذى بالصحابة فى مكة - وخصوصاً المستضعفين منهم - جاء خبّاب بن الأرتّ إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه ويستنجد به ، وهو متوسد رداءه فى ظل الكعبة . فقال بلسانه ولسان المعذّبين من أمثاله : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : [قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له فى الأرض فيُجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين ! ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ! والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون] (١) .

يؤيد ذلك ما قاله عليه الصلاة والسلام لسراقة بن مالك فى رحلة الهجرة ، وهو مطارَد مباح الدم : [كيف بك إذا ألبسك الله سوارى كسرى] ؟

وتبشيره لأصحابه بفتح فارس والروم ، وهو محاصَر يحفر الخندق !

الثانى : أن هذا المستقبل المنشود إنما يتحقق وفق سنن الله فى رعاية الأسباب ، وإعداد المستطاع من العُدَّة ، وإزاحة العوائق من الطريق ، وترك ما عدا ذلك للإرادة الإلَهية ، فما يعجز عنه البَشر لا تعجز عنه القدرة المطلقة (٢) .

* *

● الخلفاء الراشدون والمستقبل :

ومَن تأمل فى سيرة الصحابة ، وخصوصاً الخلفاء الراشدين ، استبان له من وقائع شتّى اهتمامهم بالمستقبل وتفكيرهم فيه ، واحتياطهم له .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) راجع ما ذكرناه عن التخطيط للهجرة فى حديثنا عن « عصر العلم والتكنولوجيا » .

وهذا ما حفزهم إلى جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه ، لـمَّا استحرّ القتل بالقرَّاء فى معركة اليمامة من حروب الرِدّة ، حتى قيل إن سبعمائة منهم قد استُشْهِدوا فى ذلك اليوم ، فأشار عمر على أبى بكر بذلك الجمع ، مخافة أن يموت أشياخ القُرَّاء ، كأُبَىّ وابن مسعود وزيد بن ثابت . وتردد أبو بكر فى أول الأمر ، ثم شرح الله صدره لتنفيذ ما اقترحه عمر ، رضى الله عنهما . وتم تكليف زيد بن ثابت بالقيام بهذا الأمر . وكان من توفيق الله تعالى ، ومن أسباب حفظ القرآن وصيانته مما أصاب الكتب السماوية السابقة . تحقيقاً لوعد الله تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (١) .

ونحو ذلك ما فعله الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه فى جمع الناس على مصحف واحد ، يُقرأ بحرف واحد ، وإلغاء كل المصاحف الشخصية التى كتبها بعض الصحابة مشتملة على تعليقات وتفسيرات .

وإنما فعل عثمان ذلك ، لأن الناس اختلفوا فى القراءات ، بسبب تفرق الصحابة فى البلدان ، واشتد الأمر فى ذلك ، وعظم اختلافهم وتشبثهم ، ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة بن اليمان حين اجتمعوا فى غزوة أرمينية ، فقرأت كل طائفة بما رُوى لها ، فاختلفوا وتنازعوا ، وأظهر بعضهم إكفار بعض ، والبراءة منه ، فأشفق حذيفة مما رأى منهم ، فلما قدم إلى المدينة دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ! قال : فى ماذا ؟ قال : فى كتاب الله . ووصف له ما رأى وما سمع ، وقال : إنى أخشى عليهم أن يختلفوا كما اختلف اليهود والنصارى ! وقد شاور عثمان الصحابة بما فيهم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . فوافقوا

---

(١) الحجر : ٩

على رأيه فى أن يجتمع الناس على قراءة فإنهم إذا اختلفوا اليوم كان مَنْ بعدهم أشد اختلافاً [(١)] .

ومن أبرز دلائل الفكر المستقبلى عند الصحابة : موقف عمر من سواد العراق بعد فتحه ، ورفضه تقسيمه على الفاتحين ، وفقاً لما فهمه أكثرهم من آية سورة الأنفال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ .. ﴾ [(٢)] .

وتوقف عمر ومعه من فقهاء الصحابة أمثال علىّ ومعاذ ، وكان تفكير عمر فى الأمر منصباً على المستقبل ، مستقبل الأجيال المسلمة التى ينتظر أن تطرق أبواب الحياة : ماذا يبقى لتحقيق مطالبها وسد حاجاتها ، إذا استولى هذا الجيل المحظوظ على تلك الغنائم الهائلة ؟ وجيوش المسلمين وثغورهم ومصالحهم العامة ، من أين يُنفق عليها فى المستقبل .

لقد قال عمر بصراحة للصحابة المطالبين بالتوزيع : أتريدون أن يأتى آخر الناس ، وليس لهم شىء ؟!

ولهذا رأى هو ومَن معه من الصحابة وقف رقبة الأرض لصالح أجيال الأمة ، على أن تبقى فى يد أربابها ، ويُفرض عليها خراج مناسب لمصلحة بيت المال أو الخزانة الإسلامية العامة . وعلّل عمر ذلك بقوله : إنى أردت أمراً يسع أول الناس وآخرهم . وكذلك قال معاذ [(٣)] .

وأعانه على إقناعهم ما فهمه من آيات توزيع الفىء فى سورة الحشر ، حيث أشركت فيه الجيل الحاضر من المهاجرين والأنصار ، ثم ألحقت بهم :

---

(١) انظر : تفسير القرطبى : ١/٤٤ ، ٤٥ ، المقدمة .

(٢) الأنفال : ٤١

(٣) انظر : الخراج لأبى يوسف ص ٢٣ ، ٢٤ ، طبع السلفية ، والأموال لأبى عبيد ص ٥٨ ، ٥٩ ، وانظر : كتابنا « فقه الزكاة » : ١/٤٠٩ ، ٤١٠ ، نشر مكتبة وهبة .

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ (١) .

وبهذا بيَّن عمر ومَن معه أن الأمة متكافلة فى سائر أزمانها ، كما هى متكافلة فى سائر أقطارها ، تكافل زمانى ، وتكافل مكانى ؛ لا يجوز لجيل أن يأكل وحده حق الأجيال اللاحقة .

* * *

• أصناف الناس أمام الماضى والمستقبل :

والناس أمام الماضى والمستقبل - أو التراث والعصر - ثلاثة أصناف : طرفان وواسطة :

١ - الموغلون فى الماضوية :

الصنف الأول : ماضويّون تراثيون موغلون فى الماضوية ، لا يكادون يرنون إلى الأمام ، أو المستقبل ، أو يتعمّقون فى الحاضر ، فهم مشدودون أبداً إلى الخلف ، سجنوا أنفسهم داخل قضبان التراث ، ولا يتصورون العيش فى الحاضر أو المستقبل ، إلا باجترار التراث كله ، بجزئياته وتفاصيله ، وخصوصاً فيما يتعلق بالتشريع والتوجيه والسلوك . وهم ينسبون موقفهم إلى الدين !

من سمات هؤلاء :

(أ) أنهم يضفون لوناً من القداسة على التراث ، فهو حق كله ، خير كلّه ، صواب كله ، مع أن الدراسة المنصفة للتراث تؤكد أنه لايخلو من الباطل فى الاعتقادات ، والشرور فى الأفعال ، والخطأ فى الآراء والأقوال .

---

(١) الحشر : ١٠

وقد كان فى عصر النبوة منافقون حدّثنا عنهم القرآن فى عدد من سوره ، وكان فيه مَن أقيم عليه الحدّ ، ومَن ذمّه الله ورسوله .

وكان فى عصر الصحابة من الفتن ما هو معلوم ، وإن كنا لا نجحد فضل هذا العصر فى عمومه وجملته .

(ب) وهم يسرفون فى ردّ كل جديد إلى قديم من التراث ، وإن لم يقم على ذلك برهان ، فنظرية « التطوّر » توجد عند علماء المسلمين ، مع الاختلاف البيّن بين ما ذهب إليه المسلمون ، وما ذهب إليه « دارون » ومَن تبعه . والطب الحديث يوجد عند الرازى وابن سينا ، وعلم الاجتماع المعاصر لا يخرج عن ابن خلدون ، إلى غير ذلك من المبالغات التى يدفع إليها حماسٌ يضيع الحقائق .

ونحو هذا مَن يتمحّل لرد النظريات العلمية الحديثة إلى آيات من القرآن الكريم ، مع أن القرآن الكريم فى غنى عن هذا التمحّل .

(جـ) وهم يعتبرون كل زمن شراً مما قبله ، إلى أن تقوم الساعة ، بناءً على ما فهموه من ظواهر بعض الأحاديث ، التى يفهمونها فهماً حرفياً ، رغم مخالفتها لنصوص أخرى ، وللواقع التاريخى أيضاً [1] .

(د) ومنهم مَن يتعلق بالصورة والشكل عند السَلَف ، لا بالروح والجوهر ، وبأعمال الجوارح لا بأعمال القلوب ، وبالآداب الظاهرة ، لا بالعبادات الباطنة ، فأكبر همّه تقصير الثوب ، وإطالة اللحية ، وعدم الأخذ منها ، وإحفاء الشارب ، والأكل باليد ، لا بالملعقة والشوكة ، والأخذ بالأقوال الجزئية للسَلَف ، لا بمنهج الاجتهاد والتفكير عندهم .

وهؤلاء قِلّة قليلة ، وإن كان لهم وجود فى الساحة العربية والإسلامية ،

---

(1) مثل حديث : [لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه] . انظر : تعليقنا على هذا الحديث فى كتابى « كيف نتعامل مع السنّة النبوية » ص ٨٧ - ٩٠

وآفتهم قصور فهمهم للدين وللعصر جميعاً ، فقد جمدوا عند أفكار معيّنة فى الدين ، وأقوال محدَّدة فى التراث ، انتهت بهم إلى الوقوف عند صورة الدين لا حقيقته ، وشكله لا جوهره ، وتمسّكوا بظواهر النصوص وحرفيتها ، لا بمقاصدها وأهدافها .

حتى سألنى بعض الطلاب والطالبات فى جامعة قطر عن أناس يتنقلون من جنوب قطر إلى شمالها ، للدعوة وتبليغ رسالة الإسلام إلى الناس ، ولكنهم أبوا إلا أن يذهبوا مشياً على أقدامهم ، وأمتعتهم على ظهر جمل يصحبونه فى رحلتهم ، ولما سئلوا : لماذا لم تركبوا السيارات وهى متاحة ؟ قالوا : نحن نتبع السنَّة فى الدعوة !!

هل هذا متصور ؟!

وهذا يذكرنى بما حكاه لى بعض الإخوة فى بعض البلاد العربية أن داعية من هذا النوع وقف يوماً يقول : الحمد لله الذى سخّر لنا الكفار من الإفرنج وغيرهم ، يقدّمون لنا العلم والتكنولوچيا لنتفرّغ نحن لعبادة الله تعالى وطاعته !!

وجهل المسكين أن تخلّفنا فى مضمار العلم والتكنولوچيا ، يعتبر جريمة فى نظر الإسلام ، لأننا لم نعدّ ما استطعنا من قوّة ، ولم نقم بحقّ فرض الكفاية ، فى إتقان كل علم به قوام الدين أو الدنيا ، كما قرر علماؤنا من قبل ، وغدونا فى كثير من الأمور عالة على غيرنا من هؤلاء « الكفار » ! فأضعنا واجبات كثيرة ، لأنَّا أضعنا وسائلها ومقدّماتها اللازمة لها ، والتى قال فيها علماؤنا : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

إن هذا الصنف من « الماضويين » أو « التراثيين » غائبون عن العصر وإنجازاته وتياراته ، وكأنما خرجوا لتوّهم من مقابر دفنوا فيها منذ خمسة قرون ، مع أن بعضهم قد يكون خريجاً فى أحدث الجامعات العصرية ، وربما كان

مهندساً أو طبيباً ، أو صيدليّاً ، أو محاسباً ، أو محامياً ، أو غير ذلك مما تفرزه جامعات عصرنا فهو عصرى الشهادة ، ماضوى الفكر .

* *

٢ - المغرقون فى المستقبلية :

الصنف الثانى : مستقبليّون مغرقون فى المستقبليّة ، لا يكادون يلتفتون إلى الوراء ، إنّما ينظرون أبداً إلى الأمام . يرون أن الإنسان يتطوّر دائماً إلى ما هو أحسن وأمثل ، فلماذا العودة إلى الخلف ، أى إلى الماضى أو التراث ، أو التاريخ ؟

نحن أبناء اليوم والغد ، لا أبناء الأمس . فلماذا التشبث بالأمس ، واعتباره أفضل من اليوم ؟ ولماذا التمسك بالتراث إلى حدّ التقديس ؟

أهمّ ما لدى الإنسان عند هؤلاء هو المخيِّلة ، إذ كان أهمّ ما فى الإنسان عند الأولين هو الذاكرة .

كأنما يريدون أن يلغوا الماضى من الزمن ، و(أمس) من اللغة ، والفعل الماضى من الكلام ، ويحذفوا الوراء من الجهة ، والذاكرة من الإنسان .

التراث عندهم متّهم ، والماضى لديهم مبغّض ، والسَلَف فى نظرهم مجرّحون ، وتاريخ الأمة ظلمات بعضها فوق بعض .

هم مع التراث كما الشاعر فى جيرانِ سوء له :

إن يسمعوا الخير أخفَوْهُ ، وإن سمعوا

شرّاً أذاعوا ، وإن لم يسمعوا كذبوا !

ما فى هذا التاريخ أو هذا التراث من حسنات وإنجازات علميّة وحضارية وأخلاقية ، منسىٌّ أو مسكوت عنه ، وما فيه من فتن وانحرافات ، لا يخلو

منها تاريخ بَشر ، ينظرون إليه من خلال « مكروسكوب » يضخّم الصغير حتى يجعله كبيراً .

لقد رأينا مِن هؤلاء مَن يهاجم « السَّلَف الصالح » ويتّهم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، بتخريب الدولة الإسلامية ، لجهله بشئون الإدارة والسياسة ! (١) .

رأينا من هؤلاء مَن سخر مِن كل مَن يكشف عن إنجاز علمى أو حضارى حقيقى - غير متمحّل - سبق به العرب والمسلمون ، ومَن يردد مع المستشرقين المتحاملين : أن المسلمين لم يكن لهم فضل ولا أصالة فى علم ولا عمل ولا فنّ ولا أدب .

فعلومهم وفلسفتهم منقولة عن اليونان ، وفقههم متأثر بتشريع الرومان ، ونظمهم مقتبسة من الفُرْس ، وحضارتهم خليط مركّب مأخوذ من الأمم السابقة .

والإسلام - بعقيدته وشريعته وأخلاقه - محسوب على هذا الماضى ، أو هذا التراث ، فهو لا يصلح لهذا العصر ، وليس كما يقول المشايخ والدعاة : إنه صالح لكل زمان ومكان . وكيف تصحّ هذه المقولة مع تغير الزمان ، واختلاف المكان ، وتطوّر الحياة والإنسان ؟

على الإسلام أن يخلى مكانه لأفكار العصر و« أيديولوچيّات » العصر ، وإن كان لا بدّ من بقائه ، فعليه أن يبقى محصوراً فى حنايا الضمائر ، بوصفه علاقة بين الإنسان وربّه ، فإن سُمِح له بالخروج منها ، فليكن فى حدود دور العبادة « الموجّهة » التى لا تتدخل فى أمور الحياة ، وسياسة الأمة ، إذ لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة !

---

(١) هذا ما كتبه حسين أحمد أمين فى بعض الصحف القاهرية ، انظر : ردنا عليه فى كتابنا « فتاوى معاصرة » : ٧١٥/٢ - ٧٢٤ ، تحت عنوان : خامس الراشدين عمر ابن عبد العزيز هل كان جاهلاً بالسياسة ؟

ومِن هؤلاء مَن يسمح للإسلام بدخول العصر ، بشرط أن تُعاد قراءته ، ويُعاد تفسيره من جديد ، دون تمييز بين الثوابت والمتغيرات ، أو بين منطقة القطعيّات ومنطقة الظنيّات . فهم يرون أن « يتعصرن » الإسلام ، لا أن يسلم العصر ، ويطالبون الإسلام أن يتطوّر ، ولا يطالبون التطوّر أن يسلم .

* *

٣ - دعاة الوسطية :

والصنف الثالث : هم الذين سلموا من إفراط الأوّلين وتفريط الآخرين ، وهداهم الله إلى الموقف الوسط ، وهم الذين قال فيهم الإمام علىّ كرّم الله وجهه : « عليكم بالنمط الأوسط الذى يلحق به التالى ، ويرجع إليه الغالى » .

إنهم يجتهدون أن يقيموا الموازين القسط بين عناصر الزمن كله : الماضى والحاضر والمستقبل ، فهم يعتبرون بالماضى ، ويعايشون الحاضر ، ويستشرفون المستقبل .

يُفرِّقون بين الإسلام والتراث ، فالإسلام كلمة الله العليا ، وأمره الذى لا يُعصى ، والتراث صنع البَشر ، ونتاج عقولهم وإرادتهم ، حتى التراث الدينى نفسه ، هو عمل العقل الإسلامى .

يعلمون أن من الخطأ البيِّن : اعتبار الإسلام ماضياً ، فالإسلام هو الماضى والحاضر والمستقبل جميعاً .

إنهم لا يرفضون القديم لمجرد قدمه ، ولا يعشقون الحديث لمجرد حداثته ؛ بل يستمسكون بكل قديم نافع ، ويرحبون بكل حديث صالح .

إنهم ينكرون على الفريق الأول جمودهم على كل قديم ، وعلى الفريق الآخر انفتاحهم على كل حديث . وفى كل من القديم والحديث خير وشر ، وصواب وخطأ ، وصلاح وفساد . والموقف المقبول شرعاً وعقلاً هو القصد

إلى اجتناب الشر والخطأ والفساد ، وتحرى الوصول إلى الخير والصواب والصلاح ، بغضّ النظر عن قِدَمِ ذلك أو حداثته .

ثم إن القِدَم والحداثة أمران نسبيان ، فرُبَّ حديث عند قوم يُعتبر أمراً قديماً كل القدم عند غيرهم ، على أن الحديث لا يبقى حديثاً أبد الدهر ، فقديم اليوم كان حديث الأمس ، وحديث اليوم سيصبح قديم الغد .

وقد كان من قبلنا - على عكس السائد اليوم - يعظّمون القديم ، ولا يحتفلون بالحديث ، ويرون الأقدمين أعلى مكانة من المحدَثين ، والأوائل أفضل أبداً من الأواخر . فقال أحد الشعراء ناقداً هذا التوجه (١) :

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً ... ويـــرى للأوائـل التقديمـا

إن هـذا القديم كـان حديثـاً ... وسيمسى هذا الحديث قديماً

إن هذا الفريق من دعاة الوسطية يرحبون بالتطور والتجديد فى الحياة والمجتمع ، بل فى الدين نفسه ، الذى نوّه رسوله بـ « المجددين » فيه ، الذين يبعثهم الله فى كل قرن لهذه الأمة : [ليجددوا لها دينها] (٢) .

فهم يقاومون الجمود البليد ، ويحاربون التقليد ، ويدعون إلى الاجتهاد ، ويؤمنون بتطور العلم والفكر . إنهم يؤمنون أن الثبات والتغير ظاهرتان متجاورتان من ظواهر الكون والحياة والإنسان . فكل منها فيه الثابت والمتغير ، وإن كان الملاحظ أن الجوهر ثابت ، والأعراض هى المتغيرة أبداً .

كما أنهم يعلمون أن التطور أو التغير ليس دائماً إلى الأحسن والأمثل ، فكثيراً ما يكون من حسن إلى سيئ ، ومن سيئ إلى أسوأ . وهذا ما يشهد به

---

(١) انظر : مقدمة تاج العروس فى شرح القاموس للزبيدى .

(٢) إشارة إلى الحديث الذى رواه أبو داود فى سننه والحاكم فى مستدركه ، والبيهقى فى معرفة السنن عن أبى هريرة وصححه غير واحد . انظر : بحثنا حول هذا الحديث فى كتابنا « من أجل صحوة راشدة » فصل : « تجديد الدين فى ضوء السُّنَّة » .

التاريخ ، وما يصدقه الواقع . فالتطور لا يقتصر على الجانب العلمى والمعرفى ، الذى يتقدم باستمرار ، بل يشمل جوانب الإيمان والقيم والسلوك أيضاً .

لهذا يرحبون بالتطور إذا كان ارتقاء إلى ما هو أفضل ، وينكرونه إذا كان فى جهة الهبوط والانحدار .

كما أنهم يميزون بين الثوابت والمتغيرات ، بين ما يقبل التجديد والاجتهاد والتطور وما لا يقبله .

فهم يدعون إلى الثبات فى المقاصد والغايات ، وإلى المرونة والتطور فى الوسائل والآلات .

الثبات فى الأصول والكليات ، والمرونة والتطور فى الفروع والجزئيات .

الثبات فى دائرة القطعيات والمحكمات ، والمرونة والتطور فى محيط الظنّيات والمتشابهات .

الثبات فى حقائق الدين ، والمرونة والتطور فى أمور الدنيا [(١)] .

هذا الفريق من دعاة الوسطية الإسلامية يؤمنون بالعقيدة أساساً ، وبالعقل نبراساً ، وبالشريعة منهاجاً ، وبالأخلاق سياجاً ، وبالاجتهاد مذهباً ، وبالتجديد مشرباً ، وبالعلم مركباً ، وبالانفتاح على العالَم دون ذوبان ، وبالتمسك بالأصول دون جمود على كل ما كان .

يؤمنون بما نقله العلاّمة ابن عبد البر النمرى : ليس هناك كلمة أضرّ بالعلم والعلماء من قول القائل : « ما ترك الأول للآخر شيئاً » ! [(٢)] ، فكم ترك

---

(١) انظر : فصل « الجمع بين الثبات والمرونة » من كتابنا « الخصائص العامة للإسلام » .

(٢) انظر : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر : ١/٩٩ ، طبع المنيرية .

الأول للآخر ، وكم فى الإمكان أبدع مما كان . وهو ما شهدت به العصور والأزمان . ويرددون معه قوله : « وليس هناك كلمة أحضّ على طلب العلم من قول الإمام علىّ كرَّم الله وجهه فى خطبة خطبها : واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون ، وقيمة كل امرىء ما يحسنه » [١] .

ولئن قيل ذلك فى شأن الفرد ، إنه ليصدق فى شأن الأمم . فقيمة كل أمة ما تحسنه . فليس المهم أن تعمل ، لكن المهم أن تحسن إذا عملت ؛ فإن الله كتب الإحسان على كل شىء .

إن تيار الوسطية لا يغفل المستقبل كما لا ينسى الماضى . وفى مكتبة الإسلاميين اليوم أكثر من كتاب يتحدث عن المستقبل من منظور الإسلام [٢] .

وقد أقام بعض الإسلاميين مركزاً لدراسات المستقبل الإسلامى مقره « لندن » . وهو الذى أقام ندوته الشهيرة فى الجزائر (سنة ١٩٩٠) عن قضايا المستقبل الإسلامى .

وهذا التقسيم الثلاثى واقعى ومنطقى ، وترجيح فريق الوسط هو الذى يدعو إليه العقلاء ، أيّاً كانت ثقافتهم . ولا بأس أن أستعير هنا كلمات الفيلسوف الأديب الدكتور زكى نجيب محمود فى التعبير عن هذا المعنى ذاته فى كتابه « ثقافتنا فى مواجهة العصر » قال : إن الثقافة العربية الحديثة إذ واجهت العصر بمقولاتها ، لم تجد مقولاتها تلك مُعَدَّة كل الإعداد لتلقّى مادة العصر ، فانقسم رجال الثقافة عندنا ثلاثة مذاهب :

---

(١) انظر : جامع بيان العلم وفضله نفس الجزء والصفحة .

(٢) مثل كتاب الشيخ محمد الغزالى عن « مستقبل الدعوة الإسلامية فى القرن الخامس عشر الهجرى » ، وكتاب د . محمد عمارة « الإسلام والمستقبل » ، وكتاب د . الدجانى عن « المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة » ، وكتابنا « أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة » وغيرها .

مذهب وجد الصيد نافراً من القفص ، لكنه لم يزل به حتى طوّعه بعض التطويع فاستكان له ولو إلى حين ، وفى رحاب هذا المذهب تقع الكثرة الغالبة من أعلام الأدب والفكر فى تاريخنا الحديث : محمد عبده ، والعقاد ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم وغيرهم ، فهؤلاء جميعاً - على اختلاف نزعاتهم وأذواقهم - لم يرفضوا العصر ، لكنهم حاولوا أن يصوغوه فى قوالب الثقافة العربية الأصيلة ، مع تفاوت بينهم فى درجة النجاح ، ومع هؤلاء القادة يذهب معظم المثقفين .

ومذهب آخر وجد الصيد نافراً من القفص فاستغنى عن الصيد ، واحتفظ بالقفص يضع فيه من كائناته المألوفة ما يجده حاضراً بين يديه ، وفى هذا المذهب تقع جماعة لا حصر لعددها ممن ملأوا أوعيتهم من كتب التراث ، وغضوا أنظارهم غضاً عن العصر بكل ما يضطرب به من قضايا ومشكلات فكرية ، ومع هذه الجماعة تذهب عامة الناس من غير المثقفين .

ومذهب ثالث وجد الصيد نافراً من القفص فحطم القفص ، وجرى مع الصيد حيث جرى ، وهؤلاء قِلّة قليلة لا تجد بأسا فى أن نمحو صفحتنا محواً ، لنملأها بثقافة العصر وحده كما هى معروفة فى مصادرها ، بغير تحريف ولا تعديل .

فمن ذلك ترى جماعتين من الجماعات الثلاث ، هما اللتان تصدّتا للعصر : إحداهما بتعديله ليلائم قالبنا الموروث ، والأخرى بغير تعديل فيه ، ملقية فى اليمّ القالب الموروث . وأما الجماعة الثالثة ، فقد لاذت بالهروب **فى حصونها ، فلا مواجهة بينها وبين العصر ، ومن ثَمَّ فلنا أن نسقطها من حسابنا ، برغم كثرة عددها ، وبرغم أنها هى التى ظفرت بتأييد الجماهير .**

وكذلك نستطيع أن نسقط من حسابنا - فى موضوعنا هذا - تلك القِلّة القليلة التى ، وإن تكن قد شاركت العصر فى مشكلاته الفكرية وقضاياه ، إلا أنها قد شاركته كما يشاركه رجال الفكر من أصحاب الحضارة الغربية

نفسها ، فكأن هذه الجماعة « المستغرِبة » تنظر إلى الأمور بعين أوروبية أو أمريكية ، وكل ما لها من انتماء إلى الثقافة العربية الحديثة هو أنها تكتب ما تكتبه باللغة العربية ، ولعل أهم ما قامت به فى صنيعها ذاك ، هو أنها عرضت على الأمة العربية ثقافة الغرب ، لا عن طريق الترجمة المباشرة ، بل عن طريق تمثلها لتلك الثقافة ثم عرضها بأسلوب حى فيه روحها وشخصيتها ، فلئن كانت الفئة الكبيرة التى لاذت بالماضى بغير تعديل ، قد خرجت من ميدان المواجهة بالفرار ، فإن هذه الفئة الصغيرة التى دمجت نفسها فى حاضر الغرب كما هو ، قد خرجت هى الأخرى من ميدان المواجهة بالذوبان فى عالَم غير عالَمهم .

وتبقى بين أيدينا جماعة واحدة ، هى التى اضطلعت بالمواجهة الثقافية بكل ما فى هذه الكلمة من أبعاد ، وأعنى تلك الجماعة التى تستقطب جمهور المثقفين ، والتى جعلت همها أن تسوق ثقافة العصر فى مقولات الثقافة العربية كما عرفها التاريخ [1] .

إن نظرتنا لا تخالف نظرة المفكر الكبير من ناحية المبدأ ، ولكن قد تخالفه من ناحيتين :

١ - من ناحية التطبيق ، فقد يعتبر هو طه حسين فى جماعة الوسط ، ونحن نراه أقرب إلى طرف الاستغراب ، وإن كان فى أواخر حياته قد عدّل كثيراً من موقفه .

وقد يرى هو مثل رشيد رضا وحسن البنا ومحمد عبد الله دراز ، وأمثالهم من جماعة التراث ، مع أننا نسلكهم فى دعاة الوسطية .

٢ - من ناحية التعبير ، فقد اعتبر العصر هو « الصيد » الذى يُطلَب

(١) انظر : كتابه « ثقافتنا فى مواجهة العصر » ص ١٥ ، ١٦ ، طبع دار الشروق ، بيروت .

ويُنشد ، والتراث أو الماضى مجرد « قفص » أى وعاء مهمته الاحتواء والحجز ، فليس له أى قدرة على العطاء .

وأحسب أن الإنصاف يقتضى أن نعطى للتراث حقه ، كما فعلنا مع العصر .

على أن الدكتور - وجُلّ مَن نشأوا فى أحضان الثقافة الغربية - لم يميزوا بين الإسلام والتراث ، أى بين ما هو وحى إلَهى وما هو فكر إنسانى . فالأصل أن الإسلام بعقائده وشعائره وشرائعه وقيمه وأخلاقياته الثابتة بقرآنه وسُنَّته ، أعلى من العراث ، فهو الميزان الذى يحتكم إليه المختلفون ، والنور الذى يهتدى به المتحيرون .

* * *

● دعوى التصادم بين التفكير المستقبلى والتفكير الدينى :

ومن الكُتَّاب العلمانيين مَن يزعم أن التفكير الدينى بطبيعته يصطدم بالتفكير المستقبلى ، لما يحمل فى طياته من خطر يهدد قيماً كثيرة مرتكزة على أساس دينى : فحين يفكر الإنسان المعاصر فى المستقبل يتجه ذهنه فى الأغلب إلى تلك الكشوف العلمية والتكنولوچية التى يوسع بها نطاق معرفته بنفسه ، وبالعالَم ، وسيطرته عليهما ، وطابعها هو الاتجاه إلى تأكيد قدرة الإنسان وانتقاله التدريجى من مرحلة قبول الطبيعة على ما هى عليه ، إلى مرحلة تغييرها وتشكيلها وفقاً لأغراضه ، مما يؤدى به إلى منافسة الطبيعة ، وإحداث تحول جذرى فى مسارها .

مثل هذا الجهد العلمى والتكنولوچى يتخذ فى عالَمنا المعاصر - فى نظر هؤلاء العلمانيين - طابعاً يؤدّى إلى التصادم مع كثير من القيم الدينية .

فالعلم يسير الآن فى أول الطريق المؤدى إلى كشوف تقف على مدخل تلك المنطقة المحظورة التى كانت من قبل وقفاً على التفسير الدينى وحده . والتفكير المستقبلى فى العلم يؤدى مباشرة إلى توقع التحكم فى المخ البَشرى ومختلف

القدرات الإنسانية ، وإلى أطفال الأنابيب ، وتخليق الحياة الصناعية ، والتحكم فى جنس المواليد ، بل وفى صفاتهم الجسمية والنفسية والعقلية . هناك - إذن - قُوىً مخيفة توشك على الانطلاق من داخل مختبرات العلماء ، وهى قوىً لا تقتصر على التحكم فى الطبيعة المادية ، بل تسعى إلى التحكم فى الطبيعة البَشرية بدورها . وكل اتجاه إلى التفكير فى مستقبل هذه التطورات ، يثير بالضرورة حساسيات ومخاوف لا حصر لها . فالمستقبل يحمل فى طيَّاته احتمالات مزعجة ، تؤدى إلى زعزعة قيم ظلت مستقرة ومريحة زمناً طويلاً [١] .

هذا ما قاله أحدهم عن التفكير الدينى وموقفه من احتمالات المستقبل ، وهو تحامل واضح على التفكير الدينى وحده ، على حين نجد كثيرين من العلماء والأدباء والفلاسفة والمفكرين اليوم ، فى بلاد التقدم العلمى والتكنولوچى نفسها ، يتوجسون خيفة من هوس التكنولوچيا ، وجنون البيولوچيا ، وغلو الإنسان فى الدأب على تغيير خلق الله فى الكون ، وفطرة الله فى الإنسان . وهو ما يتنادى الكثيرون من العقلاء فى العالَم اليوم لمحاولة تفاديه ، قبل أن يقع ، والتخفيف من ويلات وشرور ما قد وقع بالفعل .

وقد أطلق بعض المهتمين صيحة : « يا سكان الأرض اتحدوا » [٢] أى لتفادى الخطر الواقع والمتوقع على هذا الكوكب وأحيائه .

ويؤكد الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه « تجديد الفكر العربى » أنه « مؤمن بأنه لا مندوحة لنا عن أن نزيل التعارض القائم اليوم فى أركان الدنيا جميعاً ، بين العلم الذى يتقدم بخطوات كخطوات الجبابرة ، وقيمة الإنسان التى تنهار بوثبات كوثبات الشياطين » [٣] .

---

(١) انظر : الصحوة فى ميزان العقل للدكتور فؤاد زكريا ص ٧٢

(٢) عنوان كتاب للأستاذ عصام الدين حواس .

(٣) تجديد الفكر العربى ص ٢٨٧ ، طبع دار الشروق ، بيروت .

والدكتور قسطنطين زريق - وهو رجل مسيحى مصنَّف فى القوميين التقدميين - يتجه هذا الاتجاه فى كتابه « نحن والمستقبل » فيتحدث عن « مشكلات التقدم » الذى أخذت البلاد المتقدمة تحس بما جرّ عليها من مشكلات متفاقمة ، وأضرار وأخطاء متضخمة ، وما يتعرضون له من مساوىء وشرور . وقام فريق من رجال الفكر وأرباب المسؤولية ينبهون ويحذِّرون ، ويدعون إلى السعى الجاد السريع لتدارك الخطر ، و« كبح انطلاق التقدم » كى لا يؤدى فى النهاية إلى تخلخل الحضارة الإنسانية . ونقل عن العالِم الفرنسى « رينيه ديمون » قوله : إن جميع الدلائل تدل على انهيار حضارتنا انهياراً تاماً محتماً خلال القرن الحادى والعشرين إذا لم نصلح أساليبنا ! وأشار الدكتور زريق إلى ما قام به فريق « نادى روما » حول « المأزق الذى تعانيه الإنسانية » نتيجة التقدم العلمى والتكنولوچى . وما أصدره الباحثون المتخصصون المكلّفون من تقرير يحمل نُذُراً تشاؤمية مرعبة ، أو على الأقل خليقة بإثارة القلق البليغ لما تكشف عنه من تحديات للبَشرية فى حاضرها ومستقبلها القريب .

ومن أهم الاستنتاجات العامة التلخيصية التى توصلوا إليها قولهم : « إذا ظلت الاتجاهات الحاضرة - فى نمو سكان العالَم ، والتصنيع ، والتلويث ، وإنتاج الغذاء ، واستنزاف الموارد - قائمة دون تعديل ، فإن الإنسانية ستبلغ حدود النمو على هذا الكوكب خلال المئة السنة المقبلة . وأرجح ما سيحصل هبوط فجائى وغير قابل للضبط فى السكان وفى القدرة الصناعية » (١) .

ومثل هذه التحذيرات كثير ، يظهر فى كتب وتقارير وبحوث شتَّى ، فى أكثر من بلد . وقد نشرت الصحف من عهد قريب خبراً عن وثيقة خطيرة وقّعها ١٥٠٠ عالِم ، منهم ٩٩ (تسعة وتسعون) من حملة جائزة « نوبل » ،

---

(١) انظر : نحن والمستقبل ص ٤٨ ، ٤٩ ، ١٥١ ، طبع دار العلوم للملايين ، بيروت ، طبعة أولى .

تحذر من خطر استخدام العلم والتكنولوچيا - دون ضوابط - على البيئة والإنسان [1] .

* * *

● التعلق بالنموذج النبوى والصحابى :

ويرى بعض دعاة العلمانية : أن فكرة الدين فى حدّ ذاتها تقف حائلاً دون التحليق فى المستقبل ، والتطلع إلى غد أفضل ، وتطوير الحياة إلى ما هو أحسن وأمثل . لأنها دائماً مشدودة إلى الوراء [2] ، إلى عصر نزول الوحى . واتصال السماء بالأرض ، ويروز الجيل الأول الذى تخرّج فى مدرسة النبوة ، وهو جيل الصحابة ، أفضل أجيال الأمة فى نظر المتدينين ، لأنه الجيل القرآنى الربَّانى المحمدى ، الذى لم يُعرف لرسول من الرسل مثله ، إيماناً وعلماً وعملاً وبذلاً وجهاداً فى سبيل الله [3] ، وهو الذى جاء فى مدحه الحديث : [خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم] [4] .

* *

(١) صحيفة « الشرق » القطرية - يناير سنة ١٩٩٣ م .

(٢) انظر : « الصحوة فى ميزان العقل » للدكتور فؤاد زكريا ، فصل « الأصالة والمعاصرة » ص ٩٢ وما بعدها .

(٣) انظر : فصل « جيل قرآنى فريد » من كتاب « معالم فى الطريق » للشهيد سيد قطب .

(٤) الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود ، وعمران بن حصين وغيرهما . انظر الحديثين برقم (١٦٤٦) ، و(١٦٤٧) من اللؤلؤ والمرجان .

● حاجة البَشر إلى نموذج :

وهنا ألفت النظر إلى نقطتين مهمتين :

الأولى : أن البَشر لا يتعلمون من المبادىء النظرية وحدها ، ولكنهم فى حاجة إلى نموذج بَشرى تتجسد فيه المبادىء النظرية ، والقيم الروحية ، والمُثُل الأخلاقية المجرَّدة ، يكون لهم أُسوة ، يقتدون بها فيهتدون .

فالبَشر ليسوا فلاسفة تجريديين ، يتبعون مبدءاً مثالياً يؤمنون به ، دون أن يروه مجسّماً منظوراً ، أمامهم فى الحياة الواقعية .

لهذا اقتضت حكمة الله تعالى أن يضع أمام الناس نماذج بَشرية عملية ليقتدوا بها فيهتدوا ، تتمثّل فى رسل الله عليهم الصلاة والسلام . واقتضت حكمته – بالنسبة للرسالة الخاتمة – أن يضع أمامهم نموذجين حيين ملموسين : نموذجاً فردياً ، ونموذجاً جَماعياً .

أما النموذج الذى وضعه الله تعالى أمام الفرد ، ليتمثله ويتخذه إماماً وأُسوة ، فهو محمد رسول الله ﷺ ، الذى جعل الله فى سيرته مناراً لسلوك المؤمنين فى شتَّى جوانب الحياة .

يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾ (١) .

ومن فضل الله على عباده أن جعل فى سيرته الجامعة متّسعاً لكل أنواع الاقتداء فى مراحل الحياة المختلفة ، وجوانبها المتنوعة .

فالشاب والشيخ ، والعزب والمتزوج ، وذو الزوجة الواحدة وصاحب الأكثر من زوجة ، والأب والجد ، والحاكم والمحكوم ، والغنى والفقير ،

---

(١) الأحزاب : ٢١

والمسالم والمحارب ، والمنتصر والمنكسر ، كُلٌّ يجد فى حياته وسيرته مجالاً للقدوة [١] .

أما النموذج الآخر الذى جعله أُسوة للجماعة ، فهو جيل الصحابة فى عصر النبوة والراشدين .

فهذا جيل هيّأه الله لتلقّى رسالة الإسلام مباشرة على يدى صاحبها المبعوث بها ، فاستقبلها بعقله وقلبه وإرادته ، وعاش فيها ، وعاشت فيه ، وسرت فى كيانه العقلى والنفسى والعملى مسرى الدم فى العروق ، فحسُن فقهه لها ، وعمُق إيمانه بها ، وزكت نفسه بتعاليمها ، وصلح عمله فى رحابها ، وصدق جهاده لنصرتها .

فكان هذا الجيل أفقه الناس لروح الإسلام ، وأصدقهم عملاً به ، وأسرعهم للبذل فى سبيله ، وأكثرهم غيرة على حرماته ، وجهاداً لإعلاء كلمته .

وهو الذى حفظ لنا القرآن فى الصدور وفى السطور ، وروى لنا السنن أقوالاً وأفعالاً وتقريرات ، ونشر دين الله فى الآفاق ، بالأعمال قبل الأقوال ، وبالأخلاق قبل الأوراق . وربّى الشعوب على حبه والإيمان به ، والعمل بأحكامه . وهى مهمات عظمى ، انفرد بحملها دون سائر الأجيال ، وهى أعباء تنوء بها الجبال .

ولا غرو أن أثنى الله عليه فى كتابه [٢] ، وأثنى عليه الرسول فى أحاديثه ،

---

(١) انظر كتاب « الرسالة المحمدية » للعلامة سليمان الندوى بتقديم محبّ الدين الخطيب ، نشر المكتبة السلَفية .

(٢) فى أواخر سورة الأنفال (من الآية : ٧٢ - ٧٥) ، وفى سورة التوبة (من الآية : ٨٨ - ٨٩) ، وآخر سورة الفتح (الآية : ٢٩) ، وسورة الحشر (الآية : ٧ - ٩) ، وغيرها من سور القرآن .

وأثنت عليه الأمة بعد ذلك فى مأثوراتها ، وسجّل التاريخ فضله بأحرف من نور .

ومن هنا لا نعجب إذا رنا المسلم ببصره إلى النموذج الأول ، المثل الأعلى للفرد ، وهو الرسول الأكرم الذى بعثه الله ليتمّم مكارم الأخلاق ، ووصفه بأنه : ﴿ عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (1) ، ليتّخذ منه الأسوة والهداية فى حياته كلها . ورنت الجماعة ببصرها كذلك إلى الجيل الأول ، الجيل الربّانى ، القرآنى ، المحمّدى ، ليتّخذ منه أسوة فى حسن فهم الدين ، وصدق اليقين بما عند الله ، والتناصح فى الله ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر والمرحمة ، والتعاون على البر والتقوى ، والجهاد فى سبيل الله ، وتقديم مصلحة الإسلام على كل مصلحة شخصية .

والنقطة الثانية : أن وضع هذا النموذج أو ذاك أمام الفرد المسلم أو الجماعة المسلمة ، لا يعنى أن نهتدى به فى كل تفصيلات الحياة ، وجزئياتها المتغيرة ، وعلاقاتها المتطورة .

إنما الواجب والمشروع هو وضع النموذج نصب الأعين ، لتهتدى بهداه ، وتقتبس من سناه ، وتنهل من فضائله ، وتغترف من معين قيمه ومبادئه ، وتشرب روحه العالية المشرقة فيما تأخذ وما تدع .

وقد كان الصحابة عامة ، والراشدون خاصة ، أعظم الناس تأسيّاً واقتداءً برسول الله ﷺ ، وحرصاً على اتباع سنّته ، واقتفاء سيرته ، ولم يمنعهم ذلك أن يبتكروا أشياء اقتضاها زمانهم وتطور حياتهم ، ومصلحة دينهم ودنياهم ، مثل جمع القرآن فى مصحف ، وجمع الصحابة على حرف واحد من أحرف القراءة السبعة ، وتدوين الدواوين ، وتمصير الأمصار .

ونجد رجلاً مثل عمر بن الخطاب - الرجل الثانى فى الإسلام فى نظر

---

(1) القلم : ٤

جمهور الأمة - يستحدث أشياء لم تكن فى عهد النبوة ، ولا فى عهد أبى بكر ، وهى التى يعدونها « أوليات عمر » ، فهو أول مَن مصّر الأمصار ، ودوّن الدواوين ، وكتب الناس على قبائهم ، وفرض العطاء لكل مولود فى الإسلام ، وأول مَن استقضى القضاة فى الأمصار ، وأول مَن كتب التاريخ (١) .

بل نجد الصحابة خالفوا ما كان عليه الأمر فى حياة النبى ﷺ ، عملاً بما تقتضيه السياسة الشرعية الحكيمة ، من جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، وتحقيق أكبر منفعة لأكبر عدد من الناس بقدر المستطاع .

ولهذا وقف عمر أرض السواد ولم يقسمها كما قسم النبى ﷺ خيبر ، والتقط عثمان ضوالّ الإبل ، ولم يكن يلتقطها النبى ﷺ وضمّن علىّ الصناع ، ولم يكونوا يضمّنون فى عهد النبوة .

وهذا لا يعتبر فى الحقيقة مخالفة ، بل فعل النبى عليه الصلاة والسلام ما هو أصلح للأمة فى زمنه ، وفعل خلفاؤه الراشدون ما هو أصلح للأمة فى زمنهم . كما قال ابن قدامة فى تعليل فعل عمر فى الأرض .

ولو كان الإسلام يكره الابتكار فى شئون الحياة ما رغّب الرسول الكريم فى ذلك بقوله : [مَن سنّ فى الإسلام سنَّة حسنة فله أجرها ، وأجر مَن عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء] (٢) .

وهذا هو المنهج الذى يريده الإسلام : الاتباع فى أمور الدين ، والابتداع فى أمور الدنيا . وكذلك كان أفضل أجيال المسلمين . فلمّا انحرف المسلمون

---

(١) انظر : سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ، نشر دار إحياء علوم الدين بدمشق ص ٧٥ - ٧٩

(٢) رواه مسلم فى كتاب « الزكاة » من حديث جرير بن عبد الله برقم (١٠١٧) ، وكرره فى كتاب « العلم » فى صحيحه .

عن النهج الصحيح للإسلام ، عكسوا المشروع ، وقلبوا الموضوع ، فابتدعوا فى شؤون الدين وجمدوا فى أمور الدنيا والحياة .

والمسلمون فى خير قرون هذه الأمة ، وهى القرون الثلاثة الأولى - برغم يقينهم بفضل عصر النبوة والراشدين - لم يمنعهم ذلك أن يطوروا من علوم الدين ، ويخترعوا فى علوم الدنيا ، فنشأت مدارس الفقه والتفسير والكلام ، ومدارس اللغة والنحو ، ودوّنت علوم الدين واللغة .

ثم انفتح المسلمون على العالَم من حولهم من الهنود والفُرْس واليونان ، فترجموا الكثير من كتبهم ومعارفهم إلى العربية ، وعكفوا عليها درساً وبحثاً ، فشرحوا غامضها ، وكمّلوا ناقصها ، وصوّبوا خاطئها ، ورتّبوا مشوشها ، وهذّبوا وحوّروا ، وأضافوا وغيّروا ، وابتكروا علوماً جديدة ، مثل الجبر والمقابلة ، وتركوا بصماتهم على القديم ، فى الهندسة والطب ، والفيزياء والكيمياء ، وشتّى العلوم والرياضيات ، التى كانت تعتبر كلها شُعَباً من « الفلسفة » أو « الحكمة » .

بل اعتبروهم مبتكرى المنهج العلمى التجريبى ، الذى يفخر به الغرب ، وينسبه إلى « روجر بيكُن » ، وسميّه « فرنسيس بيكُن » ، وهما إنما اقتبساه من الحضارة العربية الإسلامية ، كما اعترف بذلك كثير من المنصفين من مؤرخى العلم ، أمثال « بريفولت » ، و« جوستاف لوبون » ، و« جورج سارتون » (١) .

---

(١) بريفولت فى كتابه « بناء الإنسانية » ، ولوبون فى كتابه « حضارة العرب » ، وسارتون فى كتابه « تاريخ العلم » . وانظر : « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام واكتشاف المنهج العلمى فى العالَم الإسلامى » للدكتور على سامى النشار ص ٣٨٢ - ٣٨٥ ط دار المعارف الثانية . و « شمس العرب تسطع على الغرب » .

المهم أنهم لم يعتبروا ذلك منافياً للاعتزاز بعصر « النموذج » الأول ، واتخاذه أسوة ، بل اعتبروا ذلك من استلهام روحه ، والسير على هداه .

* *

● **استنباطات مردودة :**

ولقد استنبط بعض الباحثين المعاصرين من حديث : [خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم] مقولة غريبة ، مضمونها : آن الإنسانية التى يحتضنها الإسلام تتقدم نحو ما هو أسوأ ، لا نحو ما هو أفضل ، وأن هذا التقدم إلى الأسوأ حتمىّ لا رادّ له ، وفقاً لهذا الحديث وأمثاله .

ولهذا يرجح أن هذه الأحاديث موضوعة مصنوعة ، إما لتبرير ما حدث بالفعل ، إذا فرضنا أن الواضعين هم مسلمون فعلاً ، وإما لتوجيه مسيرة الإسلام فى طريق اليأس ، إذا فرضنا أن الواضعين منافقون (١) .

والحق أن الحديث صحيح متفق على صحته بين علماء الإسلام ، لم يطعن عالِم سنّى ولا معتزلى - فيما أعلم - فى سنده أو متنه ، بل ذكر ابن حجر والسيوطى وغيرهما من أئمة النقل أنه من المتواتر (٢) .

فاعتبار هذا الحديث موضوعاً : اتهام للأمة كلها بالجهل والغباء ، وترويج الباطل ، واجتماعها على الضلالة طوال كل تلك العصور ، وهذا مدخل لنسف الدين كله .

أما ما فهمه الباحث الفاضل من الحديث ، وما رتبه عليه من نتائج ، فهو غير مسلّم له .

---

(١) انظر : أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالَم العربى الحديث ، للدكتور فهمى جدعان ص ٢١ وما بعدها ، طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

(٢) انظر : نظم المتناثر فى الحديث المتواتر للكتانى ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، حديث رقم (٢٤١) .

فالحديث إنما دلّ على فضل الجيل الذى تلقّى عن رسول الله ﷺ ، وتربّى فى حضانة النبوة ، وشاهد ما لم يشاهده غيره من آيات الله ، ومن هَدْى رسول الله ، وحمَّله القدر من المهمات ما لم يحمله غيره ، ثم الجيل الذى تتلمذ على هؤلاء الأصحاب ، واقتبس من مشكاتهم ، واقتفى آثارهم ، والجيل الثالث الذى سار على دربهم واتبعهم بإحسان . فرضى الله عنهم ورضوا عنه .

ولا يشك دارس منصف أن « الإشعاع الروحى » لهذه الأجيال القريبة من عهد النبوة الخاتمة ، كان من القوة والعمق والسعة ، بحيث لا يلحقه جيل آخر ، وهذا فى الجملة لا فى التفصيل ، وفى أمر الدين والتقوى لا فى أمر الحياة والعلم والعمران . فهذه قد تتفوق فيها الأجيال اللاحقة على الأجيال الأولى المفضّلة فى الالتزام الدينى .

وقد بشّر الرسول ﷺ أمته أنهم سيرثون ممالك كسرى وقيصر ، وسينفقون كنوزهما فى سبيل الله ، وأنهم سيملكون المشرق والمغرب يوماً ، وأن الرخاء سيبلغ مدىً لا يكاد يجد ذو المال يومها مَن يقبل منه الصدقة ، وأن الأمن سيستتبّ حتى إنّ المرأة تخرج وحدها من الحيرة بالعراق حتى تطوف بالبيت الحرام ، لا تخاف إلا الله ، وأن أرض العرب ستعود يوماً مروجاً وأنهاراً .

فهل يُعتبر هذا كله « تقدماً إلى الأسوأ » ؟!

إن أى قارىء غير متعصب ولا متعسف للتاريخ يعلم أن الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ طوّروا كثيراً من أمور الحياة ، وأدخلوا عليها تحسينات وإضافات لم تكن فى عصر النبوة ، وهم الذين أُمِرنا أن نتبع سنّتهم ، ونعضّ عليها بالنواجذ ، فهى امتداد للسنّة النبوية المطهّرة .

وبعد عصر الراشدين وجدنا المسلمين فى عهد الأمويين والعباسيين ، يبتكرون ويضيفون أشياء لم تكن فى العصر النبوى ولا العصر الراشدى ، أقرّهم عليها علماء الأمة ، وانعقد الإجماع على مشروعيتها .

ويكفى أن تم فيها استبحار علوم الدين واللغة ، وتدوينها وتأصيلها ، وظهور المدارس العلمية والفكرية فى شتَّى أنواع العلوم والآداب ، ثم اقتباس علوم الأمم الأخرى ، عن طريق الترجمة ، ثم تدارسها وإنضاجها وتهذيبها ، وإعمال يد التعديل والتحسين والتحوير فيها ، بالحذف والإضافة والتغيير ، والتقديم والتأخير ، حتى تنسجم مع المزاج العام للأمة ، وتتواءم مع دينها وقيمها وثقافتها ، وتجد لها مكاناً فى حياتها العقلية والوجدانية والاجتماعية . ثم ابتكار علوم جديدة كاملة ، لم يعرفها السابقون .

وفى هذا الإطار نشأت الحضارة الإسلامية الفارعة الرائعة ، ثابتة الأصول ، باسقة الفروع ، وارفة الظلال ، مباركة الثمار .

ولم يتوقف المسلمون عن إبداع هذه الحضارة فى مختلف مجالاتها ، وشتَّى فروعها ، بدعوى أن هناك أحاديث تغلّ أيديهم ، أو تقيّد أرجلهم ، أو تشل تفكيرهم ، محتّمة عليهم « التقدم إلى الأسوأ » !!

صحيح أن الأجيال المسلمة التى صنعت هذه الحضارة الشماء ، لم تكن فى شفافية جيل الصحابة وتلاميذهم من الناحية الإيمانية (الروحية) - وهو أمر اعترف به الجميع - ولكن هذا لم يقف حائلاً أمام تفوقهم العلمى ، وتقدمهم الحضارى ، وجهادهم الأخلاقى . بل وضعوا أخلاقيات ذلك الجيل المثالى نصب أعينهم ، باعتباره مثلاً إنسانياً أعلى ، وبذلك يجمعون بين الحسنتين أو يحاولون ذلك على الأقل : حسنة الإبداع الحضارى المادى ، وحسنة السمو الروحى ، والترقى الإيمانى والخُلُقى .

على أن هناك أحاديث أخرى تبين فضل الأجيال اللاحقة ، وتنوه بصبرها وثباتها فى عصور الفتن والأزمات التى يُمتحن فيها أهل الإيمان ، وحملة رسالة الإسلام ، ويغدو القابض على دينه فيها كالقابض على الجمر . حتى

ذكر الحديث أن للعامل فيها أجر خمسين ! [قيل : منا أو منهم يا رسول الله ؟ قال : بل منكم] (١) .

كما صحت أحاديث كثيرة تبشر بغد مشرق ، ومستقبل زاهر لدعوة الإسلام ، ومُلْك واسع لدولته .

وصح الحديث كذلك أن الله يبعث فى كل مائة سنة مَن يُجدِّد للأمة دينها . وبذلك يتجدد أملها ، ويقوى رجاؤها ، فى صلاح الحال إذا فسد ، وقوة الدين إذا ضعف ، واستقامة الأمر إذا اعوج .

* *

● استمرار الخير فى سائر أجيال الأمة :

وإيمان المسلم بفضل القرن الأول أو القرون الأولى لا يعنى أن باب الله قد أغلق أمام سائر القرون إلى يوم القيامة ، وأن الأجيال القادمة محرومة من استباق الخيرات ، فقد حازتها تلك القرون ، ولم يعد أمامها إلا الفتات إن بقى الفتات .

بل الحق الذى لا ريب أن باب الله تعالى مفتوح للجميع إلى أن تقوم الساعة ، واستباق الخيرات مأمور به لجميع الأمة فى كل العصور : **﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾** (٢) . وكم ترك الأول للآخر ، وكم فى الإمكان أبدع مما كان . وفى الحديث الشريف : **[مثل أمتى كالمطر ، لا يُدرَى أوله خير أم آخره]** (٣) .

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى سننه كتاب « الملاحم » برقم (٤٣٤١) ، والترمذى فى التفسير (٣٠٦٠) ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجه فى الفتن (٤٠١٤) كلهم عن أبى ثعلبة الخشنى .

(٢) المائدة : ٤٨

(٣) رواه الترمذى عن أنس فى أبواب الأمثال برقم (٢٨٧٣) ، وقال : حسن غريب ، ورواه أحمد والبزار والطبرانى عن عمار بن ياسر ، قال الهيثمى : ورجال =

يقرر الشرّاح هنا : أنه كما لا يُحكم بوجود النفع فى بعض الأمطار دون بعض ، فكذلك لا يُحكم بوجود الخيرية فى بعض أجيال الأمة أو أفرادها دون بعض من جميع الوجوه ، وفى هٰذا إيماء إلى أن باب الله مفتوح ، وطلب الفيض من جنابه مفسوح . فكل طبقة من طبقات الأمة لها خاصيّة وفضيلة توجب خيريتها ، كما أن كل نوبة من نوبات المطر لها فائدتها فى النشوء والنماء لا يمكن إنكارها . فإن الأوّلين آمنوا بما شاهدوا من المعجزات ، وتلقوا دعوة الرسول بالإجابة والإيمان ، والآخرين آمنوا بالغيب ، لما تواتر عندهم من الآيات ، واتبعوا مَن قبلهم بالإحسان . وكما أن المتقدمين اجتهدوا فى التأسيس والتمهيد ، فالمتأخرون بذلوا وسعهم فى التقرير والتأكيد ، فكلٌ ذنبُهم مغفور ، وسعيهم مشكور ، وأجرهم موفور .

قالوا : والمراد هنا وصف الأمة قاطبة - سابقها ولاحقها ، أولها وآخرها - بالخير ، وأنها ملتحمة بعضها ببعض ، مرصوصة كالبنيان ، مفرغة كالحلقة التى لا يُدرى أين طرفاها [1] .

والمسلمون فى كل مكان وزمان يردّدون هذا القول بوصفه حديثاً نبويّاً : « الخير فىّ وفى أمتى إلى يوم القيامة » ، ومعناه صحيح ، وإن لم يرد بهذا اللفظ .

فقد صحّت جملة أحاديث عن عدد من الصحابة تؤكد أن [لا تزال طائفة

= **البزار رجال الصحيح ، غير الحسن بن قزعة ، وعبيد بن سليمان الأغر وهما ثقتان ، وفى عبيد كلام لا يضر : (١٠/٦٨) ، ورواه البزار والطبرانى فى الأوسط عن** عمران ابن حصين ، وقال البزار : لا يروى بإسناد أحسن من هذا : (١٠/٦٨) ، وروواه ابن حبان فى صحيحه عن عمار (الإحسان / ٧٢٢٦) .

(١) انظر : مرقاة المفاتيح ، شرح مشكاة المصابيح للعلامة على القارى : ٥/٦٥٨ ، وقد نقلناه بتصرف .

من هذه الأمة قائمة على الحق حتى يأتى أمر الله] [1] ، وهو ما يتفق مع منطوق القرآن الكريم : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [2] .

كما صحَّت أحاديث تبشر بمستقبل مشرق للإسلام ، تعلو فيه كلمته وتنتشر دعوته ، وتتسع دولته [3] .

* *

● سنن وقواعد مطردة :

ولقد وضح لدى الأجيال المسلمة طوال القرون : أن ثمة مبادىء راسخة ، وقواعد ثابتة ، وسنناً مطردة ، من محكمات القرآن والسُّنَّة ، يحتكم إليها الجميع ، منها :

١ - أن لكل عمل ثمرة ، ولكل جهد جزاء ، فى الدنيا قبل الآخرة . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [4] ، ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [5] .

٢ - أن الجهاد فى الله ، سواء أكان جهاداً روحياً أم مادياً ، لا يهدره الله أبداً : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [6] .

٣ - أن مَن نَصَرَ اللهَ نصره الله ، ومكّن له فى الأرض ، وإنما ينصر الله بالإيمان وعمل الصالحات . والصالحات : كل ما تصلح به الحياة روحياً

---

(١) صح من حديث معاوية والمغيرة بن شعبة ، وثوبان وعقبة بن عامر وجابر وعمر وأبى هريرة وعمران بن حصين وقرة بن إياس ، رضى الله عنهم . انظر : صحيح الجامع الصغير . الأحاديث من (٧٢٨٧) إلى (٧٢٩٦) . (٢) الأعراف : ١٨١

(٣) انظر فى ذلك : الأحاديث الصحيحة للألبانى - الجزء الأول - الأحاديث رقم (١ - ٦) ، نشر المكتب الإسلامى ، بيروت . (٤) الكهف : ٣٠

(٥) الأعراف : ١٧٠ (٦) العنكبوت : ٦٩

ومادياً، وما يصلح به الإنسان فردياً وجَماعياً . يقول تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ، إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إن مَكَّنَّاهُمْ فى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وآتَواْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بالمَعْرُوفِ وَنَهَواْ عَنِ المُنكَرِ ، وَلِلَّه عَاقِبَةُ الأُمُور ﴾ (١) ، ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ منكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ﴾ (٢) .

* * *

٤ – العناية بحقوق الإنسان :

ومن سمات عصرنا البارزة : أنه عصر حقوق الإنسان ، فلا معاصرة لنا إذا لم نعترف بهذه الحقوق فى دساتيرنا ، ونرعها فى مؤسساتنا ، ونزرع احترامها فى عقول أبنائنا ، وضمائر شعوبنا وحكّامنا . وبخاصة حقوق المستضعفين والمسحوقين .

حقوق الإنسان الفرد لدى المجتمع .

حقوق الشعوب لدى الحكّام .

حقوق الفقراء لدى الأغنياء .

حقوق الأجراء لدى الملاّك .

حقوق العمال لدى أرباب العمل .

حقوق النساء لدى الرجال .

حقوق الأطفال لدى الآباء .

إلى غير ذلك من الحقوق ، التى تحفظ للإنسان آدميته ، وتصون حُرمته

---

(١) الحج : ٤٠ – ٤١

(٢) النور : ٥٥

وكرامته ، وتؤمنه على ممتلكاته وخصوصياته ، وتحميه من مخالب الأقوياء أن تفترسه ، ومن أقدامهم الغليظة أن تدوسه .

فهل تضيق أصالتنا الإسلامية والعربية ذرعاً بهذه الحقوق ؟ أم ترحب بها وتنشرح بها صدراً ؟

الواقع أن هنا بحوثاً ودراسات جادة أثبتت - بمنهج علمى صحيح - أن هذه الحقوق - فى جملتها - ليست من مستحدثات العصر ، ولا من مبتكرات الغرب ، وأن الإسلام سبق بإقرارها ، بل بالدعوة إليها والمحافظة عليها ، واعتبار الفرد والمجتمع والدولة حُرّاساً على رعايتها ، بوصفها واجبات شرعية ، يُثاب مَن فعلها ، ويُعاقَب مَن تركها .

لا أملك فى دراستى هذه أن أتحدث عن هذه الحقوق وموقف الإسلام منها ، بل أحيل على بعض الكتب التى صدرت فى هذه القضية ، مثل :

حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانونى الغربى للدكتور محمد فتحى عثمان .

حقوق الإنسان بين الإسلام وإعلان الأمم المتحدة للشيخ محمد الغزالى .

حقوق الإنسان فى الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافى .

الإسلام وحقوق الإنسان للدكتور القطب محمد طبلية .

الإسلام وحقوق الإنسان للدكتور محمد عمارة .

وأكتفى هنا بعرض خلاصة مما انتهى إليه بحث الدكتور فتحى عثمان ، فى كتابه الموثق بالأدلة الشرعية والتاريخية من مصادرها الأصيلة . وفيها بيَّن أن تقرير حقوق الإنسان فى الإسلام ، استوعب الاتجاهات الوضعية كلها قديماً وحديثاً وتفوَّق عليها ، مؤكداً ما يلى :

(أ) أن تقرير حقوق الإنسان فى الإسلام قد شمل الحقوق الشخصية الذاتية

والفكرية والسياسية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية ، وأكد الحريات العامة المتنوعة والمساواة .

(ب) وقد شمل تقرير حقوق الإنسان فى الإسلام : الرجال والنساء اللائى هن [شقائق الرجال] كما ورد فى الحديث ، والأطفال وهم « الذُرِّية الضعاف » الذين تمتعوا بالرعاية الشرعية من جانب كل المؤسسات القائمة فى المجتمع الإسلامى : الأسرة والجماعة والدولة .

(جـ) كما شمل تقرير حقوق الإنسان فى الإسلام : المسلمين وغير المسلمين فى داخل دولة الإسلام وخارجها ، لأن « البر » فى الإسلام إنسانى عالَمى : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) .

(د) وحقوق الإنسان الشاملة فى الإسلام هى فى ضمان الفرد والجماعة والدولة على السواء ، لأن « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » هو واجب هؤلاء جميعاً : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (٢) .

(هـ) **ومما يتجلى فيه تفوق حكم الله على وضع البَشر بالنسبة لتقرير حقوق الإنسان وحرياته العامة : أن تقرير الحقوق فى الإسلام يستند إلى « عقيدة الإيمان » وهى فى عمقها وشمولها ودوامها لا تقارن بفكرة « القانون الطبيعى » أو « العدالة » أو « العقد الاجتماعى » أو « المذهب الفردى » . . إلخ . فـ « الله » مصدر تقرير الحقوق فى دين الإسلام حقيقة ثابتة ، لا مجرد** افتراض غامض ، والعقيدة فى الله ترتكز إلى أصولها فى الفكر والنفس ، ولها آثارها الواسعة الشاملة المستمرة فى سلوك الفرد والجماعة والدولة .

---

(١) الممتحنة : ٨ (٢) التوبة : ٧١

(و) إن استناد تقرير الحق إلى الله عَزَّ وجَلَّ وشريعته يؤدى إلى اقتران الحق بالواجب ، واقتران حق الفرد بحق الجماعة ، واقتران الحقوق الفكرية والسياسية بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية . فكل ما هو حق للفرد هو واجب على غيره : سواء أكان الغير فرداً آخر أم الجماعة أم الدولة ، وهكذا لا مجال فى المجتمع الإسلامى للأنانية والفردية ، ففى الحديث : [لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه] (١) ، [لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض] (٢) ، والقرآن يعبِّر فى جلاء أن الأخوة ثمرة الإيمان الصحيح : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (٣) .

(ز) بل إن تقرير حقوق الإنسان من قِبَل خالق الإنسان عَزَّ وجَلَّ قد جعل إحقاق الحق واجباً على صاحب الحق نفسه ، كما هو واجب على الذى عليه الحق ، فعلى صاحب الحق أن يطالب به ويحرص عليه ، ويناضل لأجله إن كان المانع مماطلاً أو باغياً أو غاصباً . ففى الحديث : [مَن قُتل دون دمه فهو شهيد ، ومَن قُتل دون عرضه فهو شهيد ، ومَن قُتل دون ماله فهو شهيد(٤)]، والمؤمنون أفراداً وجماعةً ودولة فى أى مكان مأمورون بمظاهرة صاحب الحق فى طلبه والنضال لأجله : ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُواْ الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ ﴾ (٥) . والمؤمن مأمور ألا يفرط فى حقوقه ، وبخاصة ما يمس إنسانيته وفكره واعتقاده ، حتى ولو اضطر إلى ترك الأرض التى عاش فيها وارتبط بها وألفها .

وهكذا تكون الهجرة أو « الالتجاء » بالاصطلاح القانونى المعاصر واجباً على المضطهد وليست حقاً فحسب . كما أن من واجبه النضال والجهاد حيثما كان .

(ح) والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى شريعة الإسلام يعنى إحقاق

---

(١) متفق عليه عن أنس - اللؤلؤ والمرجان (٢٨) .

(٢) متفق عليه عن جرير وابن عمر - نفسه (٤٤ و ٤٥) .

(٣) الحجرات : ١٠

(٤) رواه أبو داود (٤٧٧٢) والترمذى (١٤٢١) وقال : حسن صحيح ، والنسائى (٤٠٤٩) وابن ماجه (٢٥٨٠) كلهم عن سعيد بن زيد .

(٥) الحجرات : ٩

الحق ومقاومة البغى ، وهو التزام فذٌّ يفرضه الإسلام على الفرد والجماعة والدولة ، وهو واجب دينى شرعى يرتكز إلى العقيدة ، ويتغلغل إلى أعماق ضمير المؤمن ، وهو مقرون بالإيمان نفسه فى عدد من آيات القرآن .

(ط) وإن الإسلام ليرتضى فى مجال الاجتهاد والسياسة الشرعية كل ما يتوصل إليه التفكير والتجربة من إجراءات محكمة مخلصة ناجعة ، لضمان حقوق الإنسان ومنع المساس بها والاعتداء عليها . وفى حدود ما ورد من نصوص القرآن والسُنَّة وما وقع فى تاريخ الإسلام ، يمكن القول بوجود الضمانات التالية :

(ى) واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الملقى على عاتق الفرد والجماعة والدولة فى الإسلام ، والذى يعنى حراسة هؤلاء جميعاً للحق فى مختلف صوره ومدافعتهم للبغى فى مختلف صوره . ومن الوسائل التى عرفها تاريخ الإسلام فى هذا الصدد وظيفة المحتسب بالنسبة للحكومة ، ودعوى الحسبة بالنسبة للأفراد ، ويمكن إدخال مراقبة رعاية حقوق الإنسان فى نطاق كليهما .

(ك) كذلك كان من اختصاص والى المظالم - وهو من اختصاص القاضى قبل ذلك وعندما لا يوجد مثل هذا المنصب - النظر فى تعدى الولاة على الرعية وأخذهم بالعسف فى السيرة . فهذا من لوازم النظر فى المظالم الذى لا تقف على ظلامة متظلم ، فيكون لسيرة الولاة متصفحاً ، وعن أحوالهم مستكشفاً ، ليقويهم إن أنصفوا ، ويكفّهم إن عسفوا ، ويستبدل بهم إن لم ينصفوا .

(ل) ولا مانع أن يقوم قضاء داخل الدولة الإسلامية على أعلى مستوًى لحماية حقوق الإنسان : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١) .

---

(١) النساء : ٥٩

(م) ومن الإجراءات المعروفة فى شريعة الإسلام وتاريخه « التحكيم » لمحاولة الإصلاح بين طرفى النزاع ، سواء أكان ذلك على المستوى الداخلى أو العالَمى . والنص صريح فى مجال الأسرة ولا مانع من تعديته إلى الجماعة داخل الدولة والجماعة الإنسانية الدولية ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا ﴾ (١) .

(ن) والإسلام يشرع الجهاد لحماية حقوق الإنسان ، ومنع استضعافه ، والبغى على ذاته وحقوقه : ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ (٢) .

(س) وحق الهجرة والالتجاء مكفول للفرد الفرار بنفسه وعقيدته وفكره من الاضطهاد ، وكل ما يمكن أن يستحدث من وسائل لحماية الحق وكفالة العدل ومقاومة البغى فإن الإسلام يرتضيها ويحتويها (٣) .

هذه هى حقوق الإنسان فى الإسلام ، واضحة بيِّنة موثقة من أصوله ومصادره .

ولكن الذى نؤكده هنا : أن الإسلام يمتاز عن الفكر الغربى بما قرره من التوازن بين الحقوق والواجبات . فالإنسان فى حضارة الغرب يركض أبداً وراء ما هو له ، ولا يهتم كثيراً بما هو عليه . والإنسان فى الإسلام مشدود إلى ما يجب عليه أولاً ، الإنسان فى نظر الغرب مطالِبٌ سائل ، وفى نظر الإسلام مطالَب مسئول . وفرق كبير بين الموقفين ، فرق بين مَن يقول :

---

(١) النساء : ٣٥ (٢) النساء : ٧٥

(٣) انظر : حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانونى الغربى للدكتور فتحى عثمان ص ١٧٤ - ١٩٢ ، طبع دار الشروق ، القاهرة .

ماذا لى ؟ ومَن يقول : ماذا علىّ ؟ فالأول يدور حول حاجته ، والآخر يدور حول قيمة أخلاقية . ومن خلال أداء الواجبات تُرعى الحقوق ؛ إذ ما من حق لفرد أو جماعة إلا كان هو واجباً على غيره . فحقوق المحكومين إنما هى واجبات على الحُكَّام ، وحقوق المستأجرين إنما هى واجبات على المالكين . وحقوق الأولاد إنما هى واجبات على الوالدين ، وهكذا .

* * *

الفصل الرابع

ملاحظات ونتائج

- تواصل الحوار .
- ملفات يجب أن تغلق .
- لا مبرر للعلمانية فى أرضنا .
- تأكيد كرامة الإنسان .
- المحرقة التى تُعَد لدعاة الإسلام .
- فلسفة تجفيف المنابع .
- حتى المسجد لم يعد خادماً للإسلام .
- التدين الذى يروجون له .
- من الرابح من وراء ذلك ؟

* * *

أريد أن أذكر فى هذا الفصل بعض الملاحظات أو الوصايا التى أرى من الخير أن يتفاهم عليها دعاة الأصالة ودعاة المعاصرة ، إن كان لا بد من بقاء هذا التصنيف أو التقسيم :

● تواصل الحوار :

من هذه الملاحظات : ضرورة تواصل الحوار بين المخلصين من الفريقين ، لتصحيح المفاهيم ، وإزالة الشبهات ، وتقريب الشقة ، ومحاولة توسيع مساحة المتفَق عليه ، وتأكيد التعاون فيه ، والمناقشة الجادة فى المُختَلف فيه ، والعمل على تضييقه ، والاجتهاد فى الوصول إلى الصواب أو الصحيح أو الأصح ، ما وجدنا لذلك سبيلاً ، وإلا وسعنا التسامح والتماس الأعذار للمخالفين وإن اعتبرناهم نحن مخطئين .

وقد أمر القرآن بحوار المخالفين فى الدين من أهل الأديان الكتابية الأخرى ، على أن يكون الحوار بأحسن الأساليب وأمثلها ، وأن يركز على مواضع الاتفاق لا على نقاط الاختلاف . يقول تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

فإذا كان هذا هو الموقف الواجب مع المخالفين فى الدين ، فمن باب أولى أن يتبع مع المخالفين فى الفكر .

* * *

(١) العنكبوت : ٤٦

● ملفات يجب أن تُغلق :

كما أرى أن من الخير أن نفرغ من بعض القضايا التى حسمها البحث العلمى الجاد ، فينبغى أن نغلق ملفاتها ، ولا نظل نلف وندور حولها دون طائل ، فالأعمار أثمن وأقصر من أن تضاع فى تحصيل الحاصلات ، وتوضيح الواضحات ، ونشر النشارة !

انظر إلى قضية مثل قضية « الربا » ، كيف ثارت منذ أكثر من نصف قرن ، حين كانت الرأسمالية الغربية فى أوجها ، وكان المنهزمون فكرياً ونفسياً من أبناء المسلمين يحاولون أن يجدوا لهم سنداً من داخل الشرع يبررون به استباحة الربا ، الذى جلبه الاستعمار فى ركابه إلى ديار المسلمين .

تمحكوا بالتفريق بين ربا الجاهلية والربا الحاضر ، أو بين ربا الإنتاج وربا الاستهلاك ، أو بين الأضعاف المضاعَفة - كما حاولوا أن يفهموه من سورة آل عمران - وربا الفائدة المحدودة (١٠٪) أو نحو ذلك .

وقام العلماء الواعون الصادقون من رجال الشريعة ورجال الاقتصاد ، وردوا هذه الدعاوى كلها ، بمنطق علمى موضوعى رصين ، من أمثال : أبى الأعلى المودودى ، ومحمد عبد الله دراز ، ومحمد عبد الله العربى ، وعيسى عبده إبراهيم ، ومحمود أبو السعود ، وأحمد عبد العزيز النجار ، وغيرهم .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل دخل المسلمون فى دور إيجاد البدائل الإسلامية عن المؤسسات الغربية الربوية ، فقامت المصارف الإسلامية ، ومؤسسات الاستثمار الإسلامى ، وطفقت تنمو وتتسع ، وتتطور إلى الأحسن .

ثم فوجئنا بمن يردنا خمسين سنة إلى الوراء ، لنناقش من جديد ما فرغنا من مناقشته وانتهينا منه نظراً وعملاً !

ثم انظر المعركة التى بدأت فى عهد الشيخ محمد عبده مع فرح أنطون صاحب مجلة « الجامعة » عن « الإسلام والسلطة الدينية » ، والتى حسمها الأستاذ الإمام - حين جعل من أصول الإسلام الستة فى إرساء العلم والمدنية : « قلب السلطة الدينية » لا إقامتها وتشييدها - لم تزل تظهر بين حين وآخر ، كأنها أمر جديد .

أكد الأستاذ الإمام محمد عبده : « أن الإسلام هدم بناء تلك السلطة ، ومحا أثرها ، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ورسم ، لم يدّع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد ، ولا سيطرة على إيمانه ، ولم يجعل لأحد من أهله أن يحلّ ولا أن يربط لا فى الأرض ولا فى السماء ، بل الإيمان يعتق المؤمن من كلّ رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده . وليس لمسلم - مهما علا كعبه فى الإسلام - على آخر - مهما انحطت منزلته فيه - إلا حق النصيحة والإرشاد » .

وعن الحاكم قال الأستاذ الإمام : « إن الدين لا يخصه فى فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية ، ولا يرفع به إلى منزلة ، بل هو وسائر طلاّب الفهم سواء ، إنما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الإصابة فى الحكم ، ثم هو مطاع ما دام على المحجّة ، ونهج الكتاب والسُّنَّة ، والمسلمون له بالمرصاد ، فإذا انحرف عن النهج أقاموا عليه ، وإذا اعوجّ قوّموه بالنصيحة ، والإعذار إليه ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فإذا فارق الكتاب والسُّنَّة فى عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره . فالأمة هى التى تنصبه ، وهى صاحبة الحق فى السيطرة عليه ، وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه » (١) .

هذا ما قاله الأستاذ الإمام ، وقاله بعده العلاَّمة الشيخ محمد بخيت

---

(١) انظر : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : ٣/ ٢٨٥ - ٢٨٧

المطيعى مفتى مصر فى زمنه فى رده على كتاب على عبد الرازق « الإسلام وأصول الحكم » ، كما قرره العلاّمتان : محمد الطاهر بن عاشور شيخ علماء تونس ، ومحمد الخضر حسين شيخ الأزهر بعد فى مصر ، فى نقضهما للكتاب المذكور .

وهو ما أكده بعد ذلك كل مَن كتبوا عن نظام الحكم أو النظام السياسى من العلماء أو الدعاة أو القانونيين ، وهم جم غفير [(١)] .

ومع هذا الوضوح الحاسم ، أو الحسم الواضح ، فى هذه القضية لا يزال تيار التغريب - يمينيُّه ويساريّه - يبدىء فيها ويعيد .

وآخر ما قرأناه فى ذلك ما كتبه المفكر الماركسى المعروف الأستاذ محمود أمين العالِم ، فى مقاله فى صحيفة « الأهرام » عن « الإسلام السياسى والسلطة » . وكان مما قاله : « هناك ما نطلق عليه اسم « التيار الإسلامى المعتدل » وما نطلق عليه اسم « التيار المتعصّب » ، وما نطلق اسم « التيار الإرهابى » . على أنه برغم هذا التنوع والاختلاف ، فهناك موقف يكاد يوحد هذه التيارات جميعاً ، هو الموقف من السلطة . فهى جميعاً تدعو إلى « السلطة الدينية » . ولا تكتفى بالقول بتطبيق الشريعة الإسلامية أو باستلهامها . بل تدعو دعوة صريحة جهيرة إلى أسلمة السلطة ، وأسلمة المجتمع ، فى مختلف ممارساته وأساليب حياته . بل لعلّ بعضها يدعو إلى أسلمة المعرفة والعلوم كذلك . لا العلوم الاجتماعية فحسب ، بل العلوم الدقيقة كذلك ، كالعلوم الطبيعية » [(٢)] .

---

(١) انظر على سبيل المثال ما كتبه الأساتذة : محمد يوسف موسى ، ومحمد الصادق عرجون ، وحسن البنا ، وعبد القادر عودة ، وسيد قطب ، ومحمد الغزالى ، ومحمد سليم العوا ، ومحمد أبو فارس ، وعبد الحميد متولى ، وأخيراً ما كتبه خالد محمد خالد « الدولة فى الإسلام » معتذراً عما كتبه قديماً فى كتابه « من هنا نبدأ » .

(٢) انظر الأهرام فى ١٩٩٢/١٢/٩ ، صفحة « الإرهاب والتطرف فى فكر المثقفين » =

وطالما كتبنا وكتب الكاتبون : أن الإسلام لا يدعو إلى « سلطة دينية » بالمعنى الكهنوتى الذى عرفه المجتمع الغربى ، بل يدعو إلى « سلطة إسلامية » بمعنى أنها سلطة مدنية تختارها الأمة ، تعتمد المرجعية الإسلامية فى تشريعها وتوجيهها وسياستها الداخلية والخارجية .

ولكن الأستاذ العالِم ينكر ذلك أيضاً ، ويعتبر الدعوة إلى أسلمة السلطة ، وأسلمة المجتمع ، أمراً منكراً ! ويعتبر ذلك من ابتداع ما سمَّاه « الإسلام السياسى » ، فماذا يريد من وظيفة للإسلام فى الحياة ؟ ماذا يفهم من تطبيق الشريعة الإسلامية ، إذا لم تسلم السلطة ، ويسلم المجتمع ؟

لقد كان الأستاذ العالِم وزملاؤه أيام عز الماركسية يدعون إلى « مركسة السلطة » وإلى « مركسة المجتمع » ، فلماذا يريد للإسلام أن يبقى متفرجاً ، وهو يرى السلطة والدولة والمجتمع والثقافة ، تسير فى اتجاه آخر ، قد يكون إلى اليمين ، أو اليسار ، ولكنه غير اتجاه الإسلام ؟!

وماذا ينكر من أسلمة المعرفة ؟ (١) أو أسلمة العلوم الاجتماعية ؟ وهل يعنى ذلك إلا أسلمة الثقافة ؟ ومعنى أسلمة الثقافة : تحريرها من سلطان الثقافة الغربية حتى تكون ثقافة أصيلة معبِّرة بحق عن ضمير الأمة وعقلها . ولا ريب أن العلوم الاجتماعية أوصل ما تكون بثقافة كل أمة ، وخصوصيتها الحضارية .

وهذا يقتضى أن تنظر إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية نظرة جديدة ، لا تقلد

= وهو الذى علَّق عليه الأستاذ فهمى هويدى فى مقاله الأسبوعى فى ١٥/١٢/١٩٩٢ تحت عنوان « لكى لا نخوض المعركة الغلط » .

(١) انظر ما نشره « المعهد العالَمى للفكر الإسلامى » فى واشنطن عن قضية « أسلمة – أو إسلامية – المعرفة » بأقلام : المرحوم د . إسماعيل الفاروقى ، ود . عبد الحميد أبو سليمان ، ود . عماد الدين خليل ، ود . طه جابر العلوانى .

الغرب فيها تقليداً أصم أعمى ، ولا ترفض كلّ شيء عنده ، بل تعيد قراءتها بعقلية واثقة متفتحة غير مبهورة ، من خلال منظورها الخاص ، ومسلّماتها الدينية والفكرية ، فتأخذ منها وتدع ، وترجح وتضعّف ، بمنطق علمى موضوعى ، بعيد عن التعصب للقديم ، أو التعبد للحديث .

وبذلك تنشأ مدارس عربية إسلامية جديدة فى هذه العلوم ، مكافئة للمدارس الغربية المختلفة فيها . وهذا لا يكون بمجرد إطلاق العناوين ، بل بالبحث الدؤوب ، والدراسة الجادّة الصبور .

أما « أسلمة العلوم الطبيعية » فلا أعلم مسلماً عاقلاً يدعو إلى ذلك ، إلا ما أشرنا إليه من قبل ، من ربط هذه العلوم بالأساس النظرى أو الفلسفى لهذا الكون ، وأنه مخلوق لله ، وأن قوانينه سنن لله فيه لا تتبدل ، فليس ما يجرى فيه من باب المصادفات ، ولا هو من فعل الطبيعة العمياء ، وإنما هو صنع الله الذى أتقن كل شيء وقدرّه تقديراً . وكذلك استخدام هذا العلم فيما ينفع الإنسانية لا فيما يضرّها . أى ربط العلم بالإيمان والأخلاق .

وهل يضير العلم الطبيعى أن يقول مَن استخدمه ما قال سليمان حين جىء له بعرش بلقيس فى لمح البصر ، بواسطة « الذى عنده علم من الكتاب » ، فقال : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ ؟[1] ، أو يقول ما قال ذو القرنين عندما أقام السدّ العظيم : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَبِّى ﴾ [2] .

يبدو أن تصور الكاتب لأسلمة السلطة ، وأسلمة المجتمع ، وأسلمة المعرفة ، لا يمت بصلة إلى ما يدعو إليه تيار الوسطية الإسلامية ، الذى هو التيار الأعمق جذراً ، والأقدم عهداً ، والأوسع انتشاراً .

---

(١) النمل : ٤٠   (٢) الكهف : ٩٨

فالتسوية بين التيارات التى ذكرها ، ووصفها بالمعتدل والمتعصب والإرهابى ، تسوية بين مختلفين أو مختلفات ، كما تدل العناوين ذاتها .

* * *

● لا مبرر للعلمانية فى أرضنا :

ومن الملفات التى يجب أن تُغلق ما ذكره الدكتور كمال أبو المجد فى ندوة (الإسلام والعروبة) وهو : ملف العلمانية التى تفصل الدين عن الحياة والمجتمع ، فقد نشأت فى أرض غير أرضنا ، وقوم غير قومنا ، لظروف لا نظير لها عندنا .

إن الغرب نادى بالعلمانية ليواجه بها كهنوت الكنيسة الغربية التى وقفت مع الجمود ضد الفكر ، ومع الجهل ضد العلم ، ومع الملوك ضد الشعوب ، ومع الأغنياء والإقطاعيين ضد الفقراء والكادحين .

ونحن لا توجد لدينا بابوية ولا كهنوت ، ولا « رجال دين » ما حلّوه فى الأرض فهو محلول فى السماء ، وما عقدوه هنا فهو معقود هناك .

لقد بيَّنتُ فى دراسة لى أن العلمانية فى الغرب لها ما يبررها من فكرها الفلسفى منذ عهد أرسطو الذى يرى أن الله لا علاقة له بالعالَم ، لا يعلم فيه شيئاً ، ولا يدبر فيه أمراً ، ومن فكرها الدينى الذى يذكر ظاهر نصه مؤكداً قسمة الحياة بين الله وقيصر ، وترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله !

أما العلمانية عندنا فهى ضد الدين ، وضد فكر الأمة ، وضد مصلحتها . وهى تجرد الأمة من طاقات هائلة كان يمكن أن تفجرها العقيدة والشريعة ، لو كانت العقيدة هى الموجهة ، والشريعة هى الحاكمة .

وقد جرَّبتْ بعض البلاد الإسلامية العلمانيةَ ، وقهرت شعوبها على الخنوع لها ، بسيف الجبروت ، وسوط العذاب ، بدعوى اللحاق بالغرب المتقدم ، والعالَم المتطور . فهل تقدّمت وتطورت حقّاً ؟

إن أبرز مثل لذلك هو تركية أتاتورك ، التى قلدت الغرب فى كل شىء ،

حتى فى لِبْس القبعة ، وتحريم الطربوش ، ومنع الحجاب ، وعطَّلت أحكام الشريعة القطعية حتى فى الزواج والطلاق والميراث وشؤون الأسرة ، وعزلت الأجيال عن تراثها تماماً حين ألغت الحرف العربى وفرضت الحرف اللاتينى ، وقطعت الصلة بالعالَم الإسلامى عامة ، وبالعرب والعروبة خاصة ، حتى اعتبرت الأذان بالعربية جريمة .

فماذا كانت النتيجة ؟

لم تستطع أن تقتلع جذور الإسلام ، برغم حذفه من التعليم والثقافة والإعلام ، وعاش معظم الشعب فى صراع بين السطوح والأعماق ، بين الجذور والأوراق ، بين الماضى والحاضر بين العقيدة والواقع .

وانتهت تركية العلمانية إلى ما عبّرت عنه كاتبة تركية بقولها : كنا أول دولة فى الشرق ، فأصبحنا آخر دولة فى الغرب !

بل إن الغرب نفسه - برغم تهالك الدولة التركية على الارتماء فى أحضانه والانتماء إليه - لم يعترف بتركية عضواً فى جسمه ، وجزءاً من حضارته ، ولهذا لم يقبلها فى السوق الأوروبية المشتركة ، وقال فى ذلك المستشار الألمانى بصراحة : إن تركية تنتمى إلى حضارة غير حضارتنا !

وبذلك جسَّدت تركية العلمانية قصة الغراب الذى حاول أن يقلد النسر ، فلم يفلح أن يكون نسراً ، ولم يصلح أن يعود غراباً !

* * *

● تأكيد كرامة الإنسان :

ومما ينبغى التفاهم عليه والتواصى به : **تأكيد كل ما يرعى كرامة الإنسان** ، ويحترم فطرة الإنسان ، وينمى خصائص الإنسان .

إن الحكماء والبصراء المنصفين من مفكرى الغرب وجَّهوا النقد العنيف إلى حضارتهم ، لأنها أعلت من شأن الجماد أو المادة ، وهبطت بقيمة الإنسان .

فعلينا أن نؤكد ذلك ونتبناه ، ونجعل من ثقافتنا الإنسانية واقعاً حياً فى أرضنا ومجتمعاتنا ، ونمكن لها فى حياتنا العقلية والوجدانية ، حتى تؤدى دورها المطلوب فى البناء والإعلاء .

لقد سقطت دولة الشيوعية فى بلادها الأم ، برغم ما تملك من طاقات علمية وتكنولوچية ضخمة ، وما لديها من ترسانة عسكرية هائلة ، بما فيها الأسلحة الاستراتيچية والنووية ، وما عندها من موارد مادية وبَشرية وفيرة . ومع ذلك كله انهار هذا العملاق الضخم ، وهوى فجأة ، وقبلها كان يهدد العالَم كله بغزو أفكاره وفلسفته المادية .

وقد أبان هذا الانهيار أن ثقافته كانت هشة فى حقيقتها ، وإن كانت فى ظاهرها ثقافة متماسكة لها فلسفتها فى الوجود ، وفلسفتها فى المعرفة ، وفلسفتها فى القيم ، وفلسفتها فى تفسير التاريخ ، وقد عبرت عن هذا كله مناهج ، ومدارس وجامعات ، وجند لخدمته علماء وأدباء ودارسون ، وأجهزة إعلامية جبارة ، ورصدت لترويجه ملايين بل بلايين الروبلات .

وما ذاك إلا لأن هذه الثقافة لم تلائم فطرة الإنسان ، ولم تراع خصائص الإنسان ، لأنها لم تعرف حقيقة الإنسان . نظرت إليه باعتبار أنه « كائن اقتصادى » فقط . ينتج ويستهلك . ولا روح له ، ولا خلود له ، ولا رسالة له وراء إشباع غرائزه الدنيا . ورأت أن « الإنسان يقوم وحده » فى هذا الكون ، لا رب يحكمه ، ولا غاية من خلقه . وقد عبّرت عن ذلك بقولها : « لا إلَه والحياة مادة » ! ومن ثَمَّ كان الدين عدواً لها ، وكان الإلحاد ركيزتها .

وسقوط دولة الاشتراكية وذهاب ريحها ، لا يعنى أن الدولة العلمانية الليبرالية فى غرب أوروبا وأمريكا دولة قوية ، إنها قوية فى الظاهر ، كما كانت الدولة الاشتراكية تبدو لنا أو للناس كذلك . ولكن السوس ينخر فى كيانها من الداخل . وثقافتها لا تتناقض فى جوهرها تناقضاً كبيراً ، مع الثقافة الاشتراكية ، إن كلتيهما تنبع من مصدر واحد هو العقل البَشرى المادى

المحدود ، ولا تفكر إلا فى حاضر هذه الدنيا ، ولا تتخذ من الوحى مصدراً ، ولا تعترف بالله حاكماً ، ولا مدبراً . كلتاهما تستغنى بالأرض عن السماء ، وبالعقل عن الوحى ، وبالدنيا عن الآخرة ، وبالإنسان عن الله جلَّ جلاله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١) .

لقد عبَّر « ليوبولد فايس » (محمد أسد) عن ذلك بقوله : إن الحضارة الغربية لا تجحد الله جحوداً صريحاً ، ولكن ليس لله مكان فى نظامها الفكرى الحالى (٢) .

* * *

● المحرقة التى تُعَد لدعاة الإسلام !

إنى ألمح فى الأفق بوادر بل نذراً خطيرة . ففى « غرف العمليات » فى عواصم الغرب الكبرى ، تعد الخطط المدروسة - والتى تُغَذّيها جامعات وجماعات ومراكز بحوث أكاديمية علمية ، وقد أنفق عليها عشرات بل مئات الملايين بسخاء - تُعَد هذه الخطط الاستراتيجية - كما يقولون - لحرب ضروس ، هدفها ضرب هذا العملاق الذى تحرّك بعد طول رقود أو حبس ، وهو الإسلام الذى ظهر بقوة ، وأثَّر بسرعة فى الحياة الفكرية والسلوكية والاجتماعية والسياسية للمسلمين فيما يسمى « المدّ الإسلامى » أو « البعث الإسلامى » أو « الصحوة الإسلامية » . **الخطة الآن تُهيّأ - بل هُيِّئت بالفعل - لضربه وسحقه ، تحت عناوين مضلّلة أو مصطلحات هلاميّة غير محددة .**

وذلك مثل عناوين « الإرهاب » و« التطرف » و« الأصولية » وليس المقصود هو ضرب التطرف ولا الإرهاب ، **فهم الذين مهّدوا لهما السّبل** ، وهم الذين قاوموا الفكر الإسلامى الذى يؤمن بالحوار والاعتدال ، ولم يَفسحوا له

---

(١) الروم : ٧

(٢) من كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » لمحمد أسد . ترجمة د . عمر فروخ .

المجال ليعمل كغيره تحت مظلّة القانون . حتى إنهم سمحوا للفكر الشيوعى - المناقض بصراحة لعقيدة الأمة - أن يُعبِّر عن نفسه بصورة رسمية ، ورفضوا كل الرفض أن يعطوا هذا الحق للإسلام ، المعبِّر الحقيقى والوحيد عن ضمير هذه الأمة !

وحين دخل الإسلاميون معهم فى لعبة الديمقراطية ، واحتكموا إلى صناديق الانتخاب ، وظهر أن الشعب قد اختارهم ، كما فى الجزائر ، قطعوا الطريق عليهم ، وتدخلوا بالقوة لإلغاء الديمقراطية كلها ! وقد قال المفكر الكبير الأستاذ رجاء جارودى عندما شارك فى ندوة « الثقافة العربية » بالدوحة : إن الغرب قد قسّم المسلمين إلى صنفين : أخيار طيبين ، وأشرار خبثاء . فالأخيار الطيبون الذين يخضعون لأوامر وتوجيهات البنك الدولى ، وصندوق النقد الدولى . والأشرار الخبثاء هم الذين يرفضون ذلك .

ونقل عن أحد الأدباء الساخرين قوله : إن الشعب إذا صوّت ضد الحكومة يجب أن يُحَل الشعب ، لتبقى الحكومة !

قال جارودى : وهذا بالضبط ما حدث فى الجزائر .

إن الديمقراطية مقبولة ، بل مطلوبة ، بل لازمة ، إذا أتت بالعلمانيين واللادينيين ، ولو بانتخابات مكشوف زيفها ، أما إذا أتت بالإسلاميين ، فالشعب لم ينضَج بعد ، والديمقراطية غير صالحة له . وقاتل الله النفاق !

إنها « محرقة » تُعَد بإحكام للصحوة بل للأمة الإسلامية ، تديرها وترسم معالمها وخطواتها أيد خفية من هناك ، من بعيد ، وراء « الكواليس » وتنفذها أيد ووجوه عربية مسلمة ، هى التى تظهر على خشبة المسرح .

إن هذا المارد خطر ماحق ، فلا بد من العمل الجاد المخطَّط لإعادته إلى القمقم ، كما كان لمدة قرن أو قرنين من الزمان . ولا بد من الاستعانة بكل القوى من يمين ويسار ، وبكل الخصوم من غرب وشرق ، وبكل مَن يهدد

الماردُ الإسلامى مصالحهم فى الداخل والخارج ، لمحاولة الإمساك به ، طوعاً أو كرهاً ، حتى ندخله القمقم : قمقم الغفلة والهمود وغياب الوعى .

ولا بد من إعادة النظر فى الأدوات الثلاث الجبارة التى تصنع الأفكار والميول والأذواق والمشاعر ، وهى : التعليم ، والإعلام ، والثقافة ، وهى الأسلحة الفعّالة فى تلك الحرب الضروس التى بدأت بالفعل ، بصورة وأخرى ، وفى بلد وآخر .

* * *

● فلسفة تجفيف المنابع :

والفلسفة التى تقوم عليها هذه الأدوات أو هذه المؤسسات هى ما أسماه بعضهم بصراحة : سياسة « تجفيف المنابع » يقصدون : منابع التدين الإيجابى المتحرك المحرِّك . فكل ما يدعو إلى تعميق الإيمان برسالة الإسلام - بوصفه عقيدة وشريعة ومنهاج حياة - وكل ما يدعو المسلم إلى الاعتزاز به والغيرة عليه ، والموالاة لأوليائه ، والمعاداة لأعدائه ، وكل ما يدل على أصالة المسلم واستقلال شخصيته ، وتميزه فرداً ، وتميز أمته بين الأمم ، بوصفها « أمة وَسَطاً » ، وكل ما يوحى بأستاذية الأمة وشهادتها على الناس ، وكل ما يُذكِّر بفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والنصيحة فى الدين ، والتواصى بالحق والصبر ، وكل ما فيه حث على الجهاد فى سبيل الله ، ووجوب إعداد ما يُستطاع من قوة لإرهاب عدوّ الله وعدوّ الأمة ، وكل ما يشير - ولو من بعيد - إلى وجوب الحكم بما أنزل الله ، ووصف مَن تركه بالكفر أو الظلم أو الفسوق ، أو بها جميعاً ، وكل ما يومىء إلى مقاومة الجور والانحراف ، ولو بكلمة حقّ عند سلطان جائر ، وكل ما يدعو إلى احتشام المسلمة والتزامها بالحجاب الذى فرضه الله عليها بمحكمات النصوص من القرآن والسُنَّة ، وكل ما يدعو إلى قوّامية الرجال على النساء ، كما نص على ذلك كتاب الله ، وكل مايحذّر من غدر اليهود ، وكيد الكافرين .. كل ذلك وأمثاله خطر يجب أن يُقاوَم ، ووباء يجب أن يُحاصَر .

وبعبارة أخرى يجب أن « تُطَهّر !! » مناهج التعليم وكتبه ، وبرامج الإعلام ، وأدوات الثقافة والتوجيه والترفيه ، من كل ما يتضمن تلك المعانى التى أشرنا إليها ، وما شابهها .

بل يجب « تفريغ » تلك المؤسسات وأجهزتها المتنوعة من كل ما يوحى بأن الإسلام هو الحق ، وما عداه باطل ، وأنه صراط الله المستقيم ، وما عداه سُبُل فيها هدى وضلال ، وصواب وخطأ .

فإن أخطر ما يفرزه التدين - المشدود إلى القرآن والسُّنَّة وفهم سَلَف الأمة - أنه ينشىء عقلية تؤمن أنها تملك وحدها « الحقيقة المطلقة » ! ﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ** ﴾ [1] ، وهذا أصل التعصب وجرثومته .

والمنهج المطلوب اتباعه فى المرحلة الجديدة : أن نغرس فى نفوس الشعب - وبخاصة الناشئة - ما سموه « نسبيّة الحقائق » فليست هناك حقيقة بإطلاق ، إنما هناك حقيقة لدى هذا الشخص ، أو فى هذه البيئة أو فى ذلك العصر . وقد تكون هذه الحقيقة نفسها أسطورة زائفة لدى شخص آخر ، أو فى بيئة أخرى ، أو عصر آخر .

قد تقول باعتبارك مسلماً : إن التوحيد حقيقة لا ريب فيها ، دلّت عليها الفطرة ، ودلّ عليها العقل ، ودلّ عليها الوحى .

ولكن النصرانىّ يقول بالتثليث ، وأن الله ثالث ثلاثة .

والهندوسى يقول بتعدد الآلهة ، وأن الإلَه قد يحل فى بعض الحيوانات كالبقرة أو بعض الجبال أو بعض الأنهار . فما الذى يجعل قولك أولى من قولهم ؟ ودعواك أحقّ من دعاويهم ؟ ودينَك أحرى من دينهم ؟

---

(١) يونس : ٣٢

وقد ترى باعتبارك مسلماً : أن محمداً رسول الله ، وأن القرآن المنزّل عليه كلام الله ، وأن الشريعة التى جاء بها من عند الله .

ولكنْ هناك آخرون من أصحاب الأديان المخالفة ، أو ممن لا يدينون بدين ، يرفضون هذا كله ، ويقولون فى محمد وكتابه ودعوته وشريعته أقاويل أخرى . ولكلٍّ رأيه ووجهته ، وأدلّته التى يستند إليها .

فلا داعى للغضب من هؤلاء ، ولا للإنكار عليهم ، فمَن يدرى : لعلّ ما تحسبه الحقّ الذى لا ريب فيه ، يكون هو الباطل الذى لا ريب فيه !!!

وقد ترى - بحكم ثقافتك الإسلامية - أن بعد هذه الحياة الفانية حياة أخرى ، تُنصَب فيها الموازين ، وتُنشَر فيها الدواوين ، وتُوفّى كل نفس ما كسبت ، وتكافأ بما عملت ، ثواباً أو عقاباً ، جنة أو ناراً .

ولكنْ هناك آخرون ينظرون إلى الحياة الأخرى نظرة مغايرة ، فيقولون بتناسخ الأرواح ، أو ببعث روحي لا مكان فيه لنعيم حِسِّى ، ولا لعذاب مادِّى . بل يوجد مَن لا يؤمن بالآخرة ولا بالخلود قط ، بل مَن لا يؤمن بالدين من أصله ، ويراه أكذوبة اخترعها الأغنياء لإلهاء الفقراء ، أو الحكّام لتخدير المحكومين ، ويُردِّدون ما قاله الفيلسوف المادى : ليس صواباً أن الله خلق الإنسان ، بل الصواب أن الإنسان هو الذى خلق الله !!

وليس الذى يقول مثل تلك المقولات من عوام الناس وأغبيائهم ، بل من خاصة مثقفيهم وأدبائهم وفلاسفتهم ، فكيف تعتبر قول هؤلاء باطلاً كلّه ، وقولك أنت هو - وحده - الحقّ المبين ؟!!

إن الذى يليق بك أيها المثقف العصرى - آن تتسم برحابة الأفق ، وتنظر إلى الحقائق - مهما كان مصدرها - باعتبارها آموراً نسبية ، تختلف باختلاف الزمان والمكان والإنسان .

هذا هو المقصود من المعركة الجديدة مع « الأصولية الإسلامية » : تجفيف

المنابع ! إنها الفلسفة « السوفسطائية » عادت من جديد . تريد أن تفرض نفسها على أمة الإسلام . وهى تملك سيف المعز ودهبه . وتملك ما لم يملكه المعز ، ولم يكن ليحلم به ، وهو : الأجهزة المقتدرة فى التعليم والإعلام والثقافة !

والمعركة الكبرى اليوم فى أكثر من بلد عربى : معركة التعليم ، وتفريغه من كل ما ينشىء الروح الإسلامية ، والعقلية الإسلامية ، والنفسية الإسلامية ، وتهيئة مناخ فكرىّ ونفسىّ جديد ، يقبل « التطبيع » مع اليهود ، والخضوع لإسرائيل ، والانحناء لهيمنة « إلنظام العالمى الجديد » كما يسمونه . بما يحمله من أحقاد علينا ، وأطماع فينا ، واستخفاف بنا ، وإذلال لكرامتنا ، كما لمسنا ذلك فى كل قضايانا من قضية فلسطين إلى قضية البوسنة والهرسك .

ولم يقف الأمر عند تفريغ المناهج والكتب من الإسلام الإيجابى المحرّك ، فقد يعوِّض المدرس المؤمن نقص المنهج ومقرر الكتاب ، بما يبثه من روح ، وما يشيعه من فكر ، وما يدل عليه من سلوك .

ولهذا كانت الخطوة اللازمة هى تفريغ المدارس والمعاهد والمؤسسات التعليمية من العناصر الإسلامية الملتزمة ، وإقامة مذبحة كمذبحة القلعة المشهورة ، لهؤلاء « الأصوليين » بإبعادهم عن التعليم كله ، ليخلو الجو للمنافقين والوصوليين والعلمانيين ، ليُفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ويحوِّلوا وجهة الجيل من المسجد إلى المسرح والسينما ، ومن تلاوة القرآن إلى قراءة القصص ، ومن الحماس للإسلام والجهاد إلى الحماس للكرة والنوادى ، ومن احترام أهل العلم والتقوى والجهاد إلى تمجيد أهل الغناء ، والرقص والتمثيل . وبذلك تختل القيم ، وتضطرب الموازين .

والهدف من ذلك كله واضح جلى لكل ذى عينين : غسل مخ الجيل الحاضر ، والأجيال القادمة ، وصنع إسلام زائف لها ، لا صلة له بإسلام القرآن والسنَّة ، ولا بإسلام سَلَف الأمة ، إسلام « تفصّله » الحكومات على

قَدِّها ، ويعمل فيه « مقص الرقيب » ما يشاء عمله من القطع واللصق ، والحذف والإضافة ، والتقديم والتأخير .

* * *

● حتى المسجد لم يعد خاداً للإسلام :

بقي جهاز مهم لا يتبع الإعلام ولا الثقافة ولا التعليم ، وهو المسجد ، وقد كان فيما مضى هو الملاذَ الوحيد الباقي لأحرار العلماء والدعاة ، ليقولوا فيه كلمتهم ، ويُبَلِّغوا دعوتهم ، وخصوصاً المساجد الأهلية التى لا تخضع لهيمنة الحكومة ، وإشراف وزارات الأوقاف الرسمية .

ولكن الحكومات تنبهت إلى خطر هذه المؤسسة وتأثيرها على فكر الشعب ووجدانه ، إذا تهيأ للمسجد عالِم متمكن صاحب رسالة ، إنه يستطيع أن يقنع العقول ، ويوقظ المشاعر ، ويبعث العزائم ، ويُحرِّك الجماهير فى الاتجاه الذى يؤمن به ، ويُكوِّن مدرسة دينية مستنيرة حرّة الإرادة والفكر ، تأخذ عنه وتتلمذ عليه ، وفى هذا خطر جسيم .

فكان ما تواصت به وزارات الأوقاف والشؤون الدينية فى عدد من البلدان التى اتخذت من الإسلام الإيجابى موقف الخصومة الصريحة ، وهو : إبعاد العناصر المتحركة المحرِّكة من المساجد ، وجعل المساجد كلها تحت سلطان الدولة ، أو دولة السلطان ! وتعيين أئمة وخطباء لها يدورون فى فلك الحكم ، يمدحون ما يَمدح ، ويذمون ما يَذم ، وإن أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، إن لم يكن اقتناعاً ، فخوفاً وطمعاً .

وهنا اكتملت حلقات السلسلة أو الطوق الذى يطوِّق الفكر الإسلامى الراشد ، الملتزم بهُدَى الله تعالى ، وهَدْى رسوله ﷺ .

* * *

● هل ينجحون ؟!

ومع هذا أستطيع أن أقول بلا تردد : إن الإسلام أعمق جذوراً ، وأقوى

سلطاناً ، وأعز نفراً ، وأكثر جنداً ، مما يظن الظانون . وأنه - رغم هذا التخطيط الماكر ، والكيد المبيّت - ستظل هناك ألسنة صدق ، وأقلام حق ، وأيدى عطاء ، ومصابيح هداية ، ومفاتيح خير ، وجند دفاع عن الإسلام ، يظهرهم الله من حيث لا يحتسب أحد ، يحملون أمانة الكلمة ، ويؤدون رسالة الله . ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (١) .

ولقد جرّب الاستعمار ، وجرّب ورثته من المَلَكيات والجمهوريات - على اختلاف الاتجاهات الليبرالية والثورية - الدخول فى معركة مع الإسلام ودعاته ، واستخدموا ما يحل وما لا يحل من أساليب البطش والإيذاء ، فشربت سياطهم الدم ، ونهشت كلابهم اللحم ، ودقّت آلات تعذيبهم العظم ، وقُتِلَ مَن قُتِل ، وشُرِّدَ مَن شُرِّد ، ونُكِّلَ بِمَن نُكِّل ، ولكن الله تعالى أخرج الحىّ من الميت ، وأبرز من الأجيال التى ربّوها فى حضانتهم ، وظنوا أنهم صنعوها على أعينهم ، « جيلَ الصحوة » الذى شرّق وغرّب ، وأثبت وجوده فى عالم الفكر ، وعالم الجهاد ، وعالم الاقتصاد ، وعالم الدعوة ، وعالم السلوك .

لا أمل إذن فى انتصار تيّار التغريب العلمانى على الإسلام ، وإن استعان بالخبرات العالَمية ، والمكايد الصليبية ، واليهودية ، والوثنية ، المتربصة بالإسلام . وأنفق العشرات أو المئات من الملايين فى معركته تلك ، فهى معركة خاسرة فى النهاية . ﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ (٢) .

كل ما فى الأمر أن المسيرة ستتعثر بعض الوقت ، وأن الشهداء سيسقطون فى سبيل الله . وأن المحن ستظل تصقل الناس ، وتميّز الخبيث من الطيب ، ولكن القافلة لن تتوقف ، والعمل لن ينقطع ، والفجر لن يموت ، وإن طال الليل ، واحلولك الظلام . سنّة الله التى لا تتخلّف ، مع الرسل والأنبياء

---

(١) المدثر : ٣١ (٢) الأنفال : ٣٦

وأصحاب الدعوات ، وحملة الرسالات : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ، واللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ، مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢) .

يستطيع هؤلاء أن ينجحوا فى حالة واحدة : إذا حذفوا القرآن الكريم ، فلم يعد تحفظه الصدور، ولا تتلوه الألسنة ، ولا تحويه المصاحف ! كيف وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣) .

وحذفوا كذلك البخارى ومسلماً وسائرُ كتب الحديث ، ودواوين السُّنَّة ، وكتب السيرة والمغازى من علوم الأمة .

وحذفوا أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وأبا عبيدة وخالداً وطارق بن زياد وصلاح الدين وقطز ومحمداً الفاتح وعبد القادر الجزائرى وعمر المختار والخطابى وأمثالهم من ذاكرة الأمة .

وحذفوا أبا حنيفة ومالكاً والشافعى وابن حنبل وزيد بن على وجعفرا الصادق وجابر بن زيد ، وابن حزم وابن تيمية والغزالى وغيرهم ، وغيرهم من عقل الأمة .

وحذفوا ابن عبد الوهاب والسنوسى والمهدى والأفغانى ومحمد عبده ،

---

(١) آل عمران : ١٤٠ - ١٤١ (٢) البقرة : ٢١٤ (٣) الحجر : ٩

ورشيد رضا وحسن البنا والمودودى وسيد قطب والسباعى وغيرهم ، وغيرهم من حياة الأمة .

وحذفوا وحذفوا وحذفوا . . . إلى أن يحذفوا الأمة نفسها !!

وهيهات ! إن هذه الأمة لن تموت [1] ، لأنها أمة الرسالة الخالدة ، إنها خاتمة الأمم التى تحمل خاتمة الشرائع لخاتم النبيين ، فهى باقية حتى يرث الله الأرض ومَن عليها .

بَيْدَ أن مما يجب تأكيده هنا : أن هذا المناخ المشبع بروح العداء الأسود للإسلام ، والضغط المكثف على علمائه ودعاته ، والمقاومة المستميتة لصحوته ، المستخفة بماضيه وحاضره ومستقبله . . هذا المناخ المكفهر هو أعظم مُولِّد للتطرف والعنف والإرهاب ، والانفجارات المتنوعة الصور ، المختلفة الأساليب ، فإن العنف لا يثمر إلا عنفاً مثله أو أشد منه ، والضغط إذا زاد لا يُولِّد إلا الانفجار . هذا قانون من قوانين الله فى الخلق لا تمكن مقاومته.

ولا يكفى فى إيقاف هذا الذى نسميه : التطرف أو العنف أو الإرهاب ، أيّاً كان سببه ، وأيّاً كان موقفنا منه ، مجرد إصدار الفتاوى الرسمية ، والدعايات الإعلامية ، ونشر الكتب العلمانية ، التى يضعون عليها ختم « التنويرية » ، وإعلاء صوت التغريب واللادينية على صوت الإسلام الحق ، بل هذا كله يزيد النار اشتعالاً ، ويدفع لها بالوقود بعد الوقود .

وإذا استمر هذا الوضع ، فإن المعركة ستكبر وتطول ، لأنها ستكون مع الأمة قاطبة ، وستفقد الأنظمة أساس شرعيتها أمام شعوبها ، وستتسع المقاومة لهذا الكفر البواح ، حتى تمسى الأمة كلها « جماعة إسلامية » !!

* * *

---

(١) انظر : فصل « هذه الأمة لن تموت » من كتابنا « من أجل صحوة راشدة » ، طبع المكتب الإسلامى - بيروت .

● **التدين الذى يروِّجون له :**

هناك نوع من التدين مباح ، بل مطلوب ومرغّب فيه ، تُدَق له الطبول ، ويُحْرَق له البخور ، وهو التدين الذى ترعرع فى عهود التراجع والتخلف ، ثم فى عهود الاستعمار من بعده ، ثم فى عهود الحكم العلمانى الذى ورث الاستعمار .

إنه التدين الذى يروِّج الأساطير ، ويُخدِّر الإرادة ، ويشلّ الفكر ، ويجمِّد الحركة ، ويجمع الناس حول أضرحة الأولياء ، وموالد الأتقياء ، ولا يدخل فى « السياسة الملعونة » إلا إذا كانت سياسة الحكومة ! لا يهتم فيه المتدين بأمر المسلمين ، بل يقول : نفسى نفسى . فشعاره : دع الخلق للخالق ، واترك المُلْك للمالك ! إذا سُئل عن منكر شاع ، أو ظلم استشرى ، كان جوابه : أقام العباد فيما أراد !

إنه التدين الذى ترسم الحكومة خطوطه ، وتنسج خيوطه ، وتصنع دعاته ، وتهيئ رعاته ، فهو تدين « مستأنَس » أليف ، سلس ظريف ، يسير فى ركاب الدولة حيث سارت ، ويدور معها كيفما دارت . إذا ادَّعت قال لها : صدقت ، وإن دعت قال : آمين . المعروف ما عرفته ، والمنكر ما أنكرته ، فهى المرجع المأمون ، بل المصدر المعصوم !

يقوم هذا اللون من التدين على الجَبْرية فى العقيدة ، والشكلية فى العبادة ، والسلبية فى الأخلاق ، والمظهرية فى السلوك ، والجمود فى الفكر ، والتقليد فى الفقه ، والنفاق فى السياسة .

لا يعتمد فى ثقافته على المصادر الأصيلة الموثقة ، بل جُلُّ اعتماده على الإسرائيليات والحكايات ، والرؤى والمنامات ، والأحاديث الضعيفة بل الموضوعة ، والروايات الواهية ، والتفسيرات المردودة .

وإذا أخذ عن علماء العصر ، فلا يولِّى وجهه شطر العلماء العاملين ، من أهل العلم والورع والاعتدال ، وأهل الدعوة والتجرد والثبات ، بل معتمد

هذا التدين المشبوه : هو علماء السلطة ، وعملاء الشرطة ، الذين جاء وصفهم فى الحديث الشريف : [يخرج فى آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من السُّكّر ، وقلوبهم قلوب الذئاب [1]] .

هذا التدين الفردى الانعزالى السلبى الهامد ، هو الذى تتباكى الأقلام العلمانية اليوم على فوات عصره الذهبى ، وانقضاء أيامه المشرقة ، ويعتبرونه هو « الأصل » الذى طرأ عليه هذا التدين « الأصولى » الشرِّير !

وهو الذى يتنادون بضرورة إحيائه وبعثه من مرقده ، وإطلاق العنان له ليصول ويجول ، فى المساجد والزوايا ، والصحف والإذاعة والتلفاز ، ومطاردة ذلك التدين « الجديد » الخبيث .

وأغرب من ذلك تلك المحاولات الماكرة من جماعة العلمانيين ، لاعتبار فترة غياب الهوية ، وتذبذب الأصالة ، وظهور تيار التغريب ، وهيمنته بالقوة والحيلة على أزمّة التعليم والتوجيه والإعلام والتثقيف - طوال فترة الاحتلال وما أعقبه - اعتبار هذه الفترة بما أفرزته ، وما خلّفته هى الأصل والأساس ، وما خالفها بعد ذلك يكون شذوذاً عن القاعدة .

وهذا مما لا ينقضى منه عجب العاجب : أن تكون فترة الاغتراب عن الهُوية ، والانقطاع عن الجذور ، والارتماء فى أحضان الدخيل ، والسير فى ركاب الغازى - بعسكره وقيمه وفكره وثقافته - هى الأصل الأصيل والقاعدة المقررة . وإذا قُدِّر للأمة أن تصحو من سكرة ، وتستيقظ من غفوة ، تحاول أن ترجع إلى الذات ، وتعود إلى الأصول ، وتحيى ما مات من قيمها وآدابها ، وتجدِّد ما بَلِىَ من ثقافتها وحضارتها ، وتُحكِّم ما حُمِلت على تركه من دينها وشريعتها ، أو تُقوِّم ما اعوجّ من تفكيرها وسلوكها ، قال لها قائلون : هذا فهم جديد على مجتمعنا ، بل هذا فكر دخيل علينا ، وربما كان وراءه أيدٍ أجنبية تحركه من وراء ستار !

* * *

---

(١) رواه الترمذى فى أبواب الزهد عن أبى هريرة (٢٤٠٦) .

● من الرابح من وراء ذلك ؟

وهنا سؤال يفرض نفسه ، وهو : مَن الرابح الحقيقى من وراء هذه المعركة الشرسة ضدّ صحوة الإسلام ودعوته وحركته ؟

بالتأكيد ليست هى أمة العرب ولا الإسلام . فإن الأمة لا تكسب باقتلاع جذورها ، وتبديد طاقاتها ، وتشتيت قواها الضاربة ، وتمزيق شملها .

إن أمتنا هى الخاسرة بلا مراء ، من وراء هذا الصراع المرّ الذى يُدَار لحساب غيرها بيقين .

إنها الخاسرة على كل صعيد : أخلاقى أو اقتصادى أو سياسى أو اجتماعى .

وخسارتها لأسباب معلومة لا تحتاج إلى تفلسف :

١ - لأنها إذا انفصمت عن دينها تصبح أمة بلا جذور ، وإن أى شجرة تُفصَل عن جذورها لا يمكن أن تعيش . ومن المؤكد أن جذور هذه الأمة فى دينها .

٢ - ولأنها إذا ضعف دينها ، ووهن انتماؤها للإسلام ، وتمسكها به ، فقدت المفجِّر الأول لطاقاتها المكنونة ، وقدراتها المختزنة .

وقد عرفنا من قراءة التاريخ ، واستقراء الواقع : أن الدين هو المحرِّك الأول لأمتنا ، والقادر على بعثها من الهمود ، وإخراجها من الجمود والخمود . والأدلة على ذلك أكثر من أن تُحصر .

٣ - ومن ناحية أخرى ، فإن الطاقات التى كان ينبغى أن تُوظَّف فى سبيل البناء والتنمية والتقدم الحضارى ، غدت تُوظَّف فى الهدم لا البناء ، وفى التفريق لا الجمع ، وتغليب فئة على أخرى ، أو معسكر على آخر . بل فى تغليب الأقلية المغتربة على جمهور الأمة ، وبهذا تتبدد الطاقات ، وتُهدر الإمكانات . بل تعمل فى الطريق المضاد للأهداف الحقيقية للأمة .

٤ - وبعد ذلك كله ، فإن هذا الصراع المستمر بين عقيدة الأمة ومواريثها

الدينية والثقافية - التى تعتبرها جوهر حياتها ، ومبرر وجودها وبقائها ، وبين القيم والمفاهيم الدخيلة عليها - لن يدع سفينتها ترسو على بر الأمان ، بل ستظل تتأرجح وتضطرب أمام عصف الريح ، وهيجان الموج ، ومعاكسة التيار ، مما يعرضها لأخطار لا يعلم عواقبها إلا الله .

إن القضية خطيرة والله ، بل هى فى غاية الخطورة ، إذا تمت على ما أراد الذين خطَّطوا لها ، أو بقيت مصدراً للاستنزاف الدائم ، فهل من فئة من العقلاء تتنادى بتدارك الأمر وتفادى الخطر ، وإطفاء الشرر ، قبل أن يفلت الزمام ، ويعز الخلاص ؟

أرى خَلَلَ الرمادِ وميضَ نار ويوشِك أن يكون لها ضِرامُ
لئن لم يُطْفِها عقلاء قوم يكون وقودَها جثثٌ وهامُ
فإنَّ النار بالعودين تُذكى وإنَّ الحرب أولها كلامُ

إن الرابح الحقيقى من وراء هذا الجذب والشد ، والجَزْر والمد ، هو القُوى المعادية لأمتنا ، التى تحركها الأحقاد القديمة ، والأطماع الجديدة ، والمخاوف الدائمة ، من ظهور الإسلام مرة أخرى ، فى صورة أمة تملك القوة البَشرية ، والقوة المادية ، والقوة الروحية ، والموقع الجغرافى ، والبُعْد التاريخى ، والعمق الحضارى ، ولديها من الحوافز ما ليس لدى أمة أخرى ، وعندها ما تَقدِّمه للبَشرية الحائرة من كلمات الله ، وهداية السماء .

وفى مقدمة هذه القوى : إسرائيل ، التى ستقر عيناً ، وتطيب نَفْساً ، بما يجرى بجوارها ، من عزل الإسلام عن زمام القيادة ، وتنحيته عن التوجيه والتأثير والتجميع والتجنيد ، فى حين تُحرِّك هى شعبها باسم الدين ، وتجمعهم على التوراة . وبهذا يدخلون المعركة معنا ، ومعهم التوراة وليس معنا القرآن ، ويتنادون باسم موسى ، ولا نتنادى باسم محمد . ويقولون : الهيكل ، ولا نقول : الأقصى ! ويحترمون السبت ، ولا نحترم الجمعة ! فالدين عندهم شرف ، وعندنا تهمة ! ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وإسرائيل اليوم فى أسعد أوقاتها ، فقد اتفقت مع الكثيرين ممن كانوا خصومها بالأمس القريب ، على ضرب الصحوة الإسلامية . وغدت تعرض نفسها على كل القوى المعادية للإسلام لتتعاون معها فى مواجهة « الأصولية الإسلامية » الناشزة (١) .

هكذا وقفت مع الصليبية فى الغرب ، ومع الوثنية فى الشرق ، فهى عون للصربيين ضد أهل البوسنة والهرسك ، وعون للهندوس ضد أهل جامو وكشمير .

وقد زار وزير خارجية إسرائيل - شمعون بيريز - الهند ، وأعلن لهم بكل صراحة استعداد بلاده للتعاون معها ووضع كل خبراتها وإمكاناتها ضد خصومها من الإسلاميين !

* * *

(١) وقد برز هذا بوضوح أكثر وأصرح ، بعد الاتفاق المشؤوم المسمى : (اتفاق غزة رأريحا) .

خاتمـــــة

● محاور التقاء :

أحسب بعد هذه الفصول أن هناك محاور يمكن أن يلتقى عليها المخلصون ممن يُحسَبون من دعاة الأصالة ، ومَن يُحسَبون من دعاة المعاصرة . بحيث يتفق عليها الطرفان ، ويغلقون ملفات الجدل حولها .

(أ) فقد تبيَّن لنا أن لا تناقض بين العروبة والإسلام فى ثقافتنا ، إلا أن تحرّف العروبة حتى تكون ملحدة أو علمانية معادية للإسلام ، أو يحرف الإسلام حتى يكون شعوبيّاً معادياً للعروبة .

(ب) كما تبيَّن لنا أنه لا صراع فى ثقافتنا بين العلم والدين ، أو بين العلم والإيمان أو بين العقل والنقل .

فالعلم عندنا دين ، والدين عندنا علم . والعلم دليل الإيمان ، والإيمان ملاك العلم . العقل عند علمائنا أساس النقل ، والنقل نفسه يشيد بالعقل ، ويحتكم إليه ، ولا تعارض عندنا بين صحيح المنقول وصريح المعقول .

(جـ) لهذا يجب أن نعمل جميعاً على تكوين العقلية العلمية ، وتطوير المؤسسات العلمية ، وتهيئة المناخ العلمى ، حتى تدخل الأمة عصر التنكولوچيا المتطورة بخطاً ثابتة .

كما يجب أن نعمل معاً فى الوقت ذاته على إحياء معانى الإيمان ، وتجديد أخلاق الإيمان ، والوقوف فى وجه تيَّار المادية واللادينية والإباحية .

(د) ومما تبيَّن لنا كذلك أنه لا تعارض بين الأصالة الحقة والمعاصرة الحقة ،

إذا فُهِمت كلتاهما على حقيقتها . فنستطيع أن نكون معاصرين إلى أعلى مستويات المعاصرة ، وأن نبقى كذلك أصلاء حتى النخاع .

إنما تتعارض الأصالة والمعاصرة ، إذا فُهِمت الأصالة على أنها الاحتباس الاختيارى فى سجن الماضى ، والمعاصرة على أنها الدوران فى رحى الغرب .

لهذا يجب أن نتفق على رفض اتجاهين متطرفين :

الاتجاه الأول : الذى ينتهى بالأصالة إلى الجمود والتحجر ، ورفض كل جديد ، ومقاومة التجديد فى الدين ، والاجتهاد فى الفقه ، والإبداع فى الأدب ، والابتكار فى فنون الحضارة ، وإبقاء كل قديم على قدمه . والتسوية بين وحى الله تعالى وأفكار المسلمين ، وإضفاء القداسة على تراث السابقين كله ، ومعاداة كل نزعة إلى تطوير الحياة والمجتمع ، وإن كانت على أسس إسلامية ، وحظر الاقتباس من الآخرين ، ولو كان نافعاً للمسلمين ، غير مخالف لشريعتهم .

والاتجاه الثانى : اتجاه الذين ينحون بالمعاصرة نحو الفناء فى الغرب ، واتباع سننه « شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه » ، ولا يكتفون بأخذ العلم والتكنولوچيا وحسن الإدارة والتنظيم منه ، واقتباس كل ما تنهض به الحياة ، مما لا يتعارض مع ديننا وقيمنا وشريعتنا ، بل هم يصرّون على نقل الأنموذج الغربى إلينا بكل عناصره ومقوّماته ، وبخاصة جذوره الفلسفية ، ومفاهيمه الفكرية ، ومجاليه الأدبية ، وتقاليده الاجتماعية ، وقوانينه التشريعية ، ومؤثراته الثقافية .

إن كلاً الاتجاهين مرفوض ، فأولهما يمثل الإفراط ، والآخر يمثل التفريط ، ولا خير فى واحد منهما ، إنما الخير فى التوسط والتوازن .

(هـ) وقبل ذلك كله ، يجب أن نشيع روح التسامح بين المختلفين ، سواء أكان اختلافاً فى الدين أم فى المذهب ، أم فى الفكر أم فى السياسة . وأن نفتح باب الحوار العلمى الراقى ، الذى سمَّاه القرآن « الجدال بالتى هى أحسن » مع التركيز على نقاط الالتقاء والاشتراك ، لا مواضع التمايز والاختلاف ، مستهدين بقول الله تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ [1] .

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ .

* * *

---

(١) النحل : ١٢٥

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الفصل الثالث : لكي نكون معاصرين حقاً
(٧٥ - ١٦٠)

الصفحة

الفصل الرابع : ملاحظات ونتائج (١٦١ - ١٨٦)

* * *

رقم الايداع : ١٩٤٦ / ٩٤

I.S.B.N 977 - 225 - 043 - 8

كتب للمؤلف

١ - الحلال والحرام فى الإسلام .
٢ - الإيمان والحياة .
٣ - الخصائص العامة للإسلام .
٤ - العبادة فى الإسلام .
٥ - ثقافة الداعية .
٦ - فقه الزكاة (جزءان)
* سلسلة حتمية الحل الإسلامى :
٧ - « الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا » .
٨ - « الحل الإسلامى . . فريضة وضرورة » .
٩ - « بينات الحل الإسلامى . . وشبهات العلمانيين والمتغربين » .
١٠ - « أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة » .
١١ - مشكلة الفقر ، وكيف عالجها الإسلام .
١٢ - بيع المرابحة للآمر بالشراء . . كما تجريه المصارف الإسلامية .
١٣ - الصبر فى القرآن .
١٤ - غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى .
١٥ - التربية الإسلامية ، ومدرسة حسن البنا .
١٦ - رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد .
١٧ - جيل النصر المنشود .
١٨ - وجود الله .
١٩ - حقيقة التوحيد .
٢٠ - نساء مؤمنات .
٢١ - ظاهرة الغلو فى التكفير .
٢٢ - الناس والحق .
٢٣ - درس النكبة الثانية .
٢٤ - عالم وطاغية .
٢٥ - مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .
٢٦ - الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد .
٢٧ - عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية .

٢٨ - الوقت فى حياة المسلم .
٢٩ - أين الخلل ؟
٣٠ - الرسول والعلم .
٣١ - نفحات ولفحات « ديوان شعر » .
٣٢ - الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه .
٣٣ - فتاوى معاصرة (جزءان) .
٣٤ - شريعة الإسلام .
٣٥ - الصَحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف .
٣٦ - قضايا معاصرة على بساط البحث .
٣٧ - الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية .
٣٨ - المنتقى من الترغيب والترهيب (جزآن) .
٣٩ - الصَحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى .
٤٠ - الفتوى بين الانضباط والتسيب .
٤١ - من أجل صَحوة راشدة .
٤٢ - الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه .
٤٣ - الدين فى عصر العلم .
٤٤ - فوائد البنوك هى الربا الحرام .
٤٥ - كيف نتعامل مع السنّة .
٤٦ - الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .
٤٧ - تيسير الفقه .. فقه الصيام .
٤٨ - لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر .
٤٩ - المدخل لدراسة السنة النبوية .

* سلسلة نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام :

٥٠ - (١) شمول الإسلام .
٥١ - (٢) المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة .
٥٢ - يوسف الصديق « مسرحية شعرية » .
٥٣ - قطوف دانية من الكتاب والسنة .
٥٤ - الثقافة العربية الإسلامية .. بين الأصالة والمعاصرة .
٥٥ - المسلمون قادمون « ديوان شعر » .
٥٦ - محاضرات الدكتور القرضاوى .

* * *

المؤلف فى سطور

ولد ونشأ فى مصر ، وحفظ القرآن الكريم وجوّده وهو دون العاشرة ، وأتم تعليمه فى الأزهر الشريف .

حصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين عام ١٩٥٣م، وعلى إجازة التدريس عام ١٩٥٤ م ، وكان ترتيبه الأول فى كليتيهما ، كما حصل على الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٣ م

عمل بعد تخرجه فى مراقبة الشؤون الدينية بالأوقاف ، وإدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر، ثم أعير إلى قطر مديراً لمعهدها الدينى ، فرئيساً مؤسساً لقسم الدراسات الإسلامية بكليتى التربية ، فعميداً مؤسساً لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، ومديراً لمركز بحوث السُّنَّة والسيرة الذى كُلِّف بتأسيسه ولا زال يديره .

اشتغل بالدعوة منذ فجر شبابه ، وشارك فى الحركة الإسلامية ، وأوذى فى سبيلها بالاعتقال عدة مرات ، فى عهد الملكية وعهد الثورة .. وتنوع عطاؤه بتنوع مواهبه ، فهو خطيب مؤثر ، يقنع العقل ويهز القلب .. وكاتب أصيل لا يكرر نفسه ولا يقلد غيره .. وفقيه تميّز بالرسوخ والاعتدال ، فشرّقت فتاواه وغرّبت .. وعالم متمكن فى شتى العلوم الإسلامية ، جمع بين علوم أهل النظر ، وعلوم أهل الأثر .. وشاعر حفظ شعره الشباب الإسلامى وتغنّى به فى المشرق والمغرب .

جاوزت مؤلفاته الخمسين ، وقد لقيت قبولاً عاماً فى العالم الإسلامى ، وطبع بعضها عشرات المرات ، وتُرجم عدد كبير منها إلى اللغات الإسلامية ، واللغات العالمية . أما مقالاته ومحاضراته وخطبه ودروسه فيصعب حصرها .

وصفه الذين كتبوا عنه بأنه من المفكرين الإسلاميين القلائل ، الذين يجمعون بين مُحْكمات الشرع ومقتضيات العصر ، وبأن كتاباته تميزت بما فيها من دقة الفقيه ، وإشراقة الأديب ، ونظرة المجدد ، وحرارة الداعية .

عضو فى عدة مجامع ومؤسسات علمية ودعوية وعربية وإسلامية وعالمية ، منها : المجمع الفقهى لرابطة العالم الإسلامية بمكة ، والمجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن ، ومركز الدراسات الإسلامية باكسفورد ، ومجلس أمناء الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد ، ومنظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم ... ورئيس لهيئة الرقابة الشرعية فى عدد من المصارف الإسلامية .

زار عدداً كبيراً من الأقطار الإسلامية فى آسيا وأفريقيا ، والتجمعات والأقليات الإسلامية فى سائر القارات ، ودعى إلى المحاضرة فى عدد من الجامعات الإسلامية والعالمية ، كما شارك فى عدد جم من المؤتمرات والندوات العلمية داخل العالم الإسلامى وخارجه .

من أبرز دعاة (الوسطية الإسلامية) التى تجمع بين السَّلَفية والتجديد . وتمزج بين الفكر والحركة ، وتركز على فقه السنن ، وفقه المقاصد ، وفقه الأولويات ، وتوازن بين ثوابت الإسلام ومتغيرات العصر ، وتتمسك بكل قديم نافع، كما ترحب بكل جديد صالح تستلهم الماضى ، وتعايش الحاضر ، وتستشرف المستقبل .